

دولة الإمارات العربية المتحدة
مركز زايد للتنسيق والمتابعة

الوحدة العربية
المحاولات والإنجازات

د. جاد محمد طه

أغسطس 2002

المحتويات :



تقـــديم :

يسر مركز زايد للتنسيق والمتابعة أن يضع بين يدي قارئه الكريم هذه الدراسة التي تتناول موضوع «الوحدة العربية» في هذا الزمن الخاص؛ حيث محت ثورة الاتصالات الحدود والحواجز بين الأمم والقارات، وتسعى العولمة إلى صهر العالم - ولو على حساب ثقافات الأمم الضعيفة وعاداتها- في وحدة كبيرة عن طريق تكتل الشركات العملاقة، وبروز كيانات سياسية واقتصادية، لا تتجمع فيها الأمم فحسب، وإنما تتوحد القارات، انطلاقا من إدراك عميق، مؤداه أن تنمية الدول وكرامة الأمم لا يمكن أن يتحققا في عالم اليوم إلا ضمن الوحدة والتكتل، إذ لا مكان في حضارة تقودها العولمة، وتتنافس فيها الكيانات الكبيرة السياسية والاقتصادية للدول الصغيرة.

ومن هذا المنطلق كان وجود مركز زايد للتنسيق والمتابعة الذي يعمل تحت مظلة الجامعة العربية، ويسعى إلى إعلاء وتكريس مفاهيم التضامن العربي في كافة المجالات، وبلورة رؤية استراتيجية عربية لمواجهة التحديات المحدقة بالأمة العربية، ودعم وتعزيز سبل الاتصال والتعاون مع الهيئات الدولية والإقليمية، وتأسيس علاقات عربية تستند إلى التنوع في إطار الوحدة؛ لذلك فإن إصداره لهذه الدراسة التي تتطرق إلى مختلف التجارب والمحاولات التي تمت في تاريخ العرب الحديث من أجل الوحدة يدخل ضمن صميم أهدافه، وينضاف إلى جهوده المستمرة في معالجة وتوثيق مختلف القضايا التي تهم المواطن العربي معالجة جادة، تعتمد على الدراسة والبحث العلمي، بعيدا عن الشعارات الفجة الدعائية.

وقد ركزت هذه الدراسة على إبراز مقومات الوحدة العربية، مبينة أن الأمة العربية تربطها عوامل اللغة، والتاريخ المشترك، ووحدة المشاعر، والرجوع إلى أصل واحد، فضلا عن الارتباط الجغرافي الذي يسهل الحركة والتواصل بين أجزاء الوطن العربي، والتنوع الاقتصادي الذي يخلق التكامل، كما تطرقت لأنواع النظم الاتحادية السائدة في القانون والعلاقات بين الأمم والشعوب، ووقفت عند تجربة محمد علي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، والتي كانت تهدف إلى إقامة دولة عربية كبيرة، ونجحت في توحيد مصر والشام والجزيرة العربية إلا أن القوة الاستعمارية آنذاك تكالبت عليها، رافضة أن يحقق العرب هذا الإنجاز الإستراتيجي الهام.

وبينت الدراسة كذلك أن الشعور بضرورة الوحدة ظل يراود الشعوب العربية في مشرق الوطن العربي كما في مغربه، حيث خصصت فقرة لوحدة الكفاح الجزائري المغربي ضد الاحتلال الفرنسي، وأخرى للحركة القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، من خلال رصد مختلف الجمعيات والأحزاب السياسية ورجال الفكر الذين نادوا بالتحرر العربي، ودعوا إلى قيام الوحدة العربية، والعراقيل التي واجهتها دعواتهم بسبب تكالب القوى الاستعمارية، خاصة بريطانيا وفرنسا من أجل وأد أي مشروع عربي يسعى إلى الوحدة، مبرزة أن الحرب العالمية الأولى أرخت لتلاعب القوى الاستعمارية بآمال الشعب العربي، حين أعطت وعودا متضاربة؛ فمن جهة كانت تعد الشريف حسين والثوار العرب بمساعدتهم على إنشاء دولة عربية كبرى إذا هم نجحوا في محاربة السلطة العثمانية، وفي نفس الوقت كانت تخطط لوعد بلفور، وإنشاء الدولة الصهيونية للوقوف دون أي مشروع عربي مستقبلي في وحدة المشرق العربي.

ولم يفت الدراسة كذلك أن تتناول المشاريع الوحدوية التي تمت بعد ذلك فتعرضت لإنشاء الجامعة العربية، وناقشت ميثاقها، كما تناولت مختلف القمم التي عقدت وتجلى فيها التضامن العربي، وتعرضت كذلك للوحدة الاندماجية التي تمت بين مصر وسوريا (١٩٥٨- ١٩٦١)، والتحديات التي واجهتها.

وفي نقطة أخيرة تناولت الدراسة المشاريع الوحدوية القائمة الآن، والتي تتمثل، إلى جانب جامعة الدول العربية، في نجاح الوحدة التي تمت في الخليج العربي بين سبع إمارات، وقامت بموجبها دولة الإمارات العربية المتحدة، وكذلك مجلس التعاون الخليجي، واتحاد المغرب العربي.

وهكذا استعرضت هذه الدراسة اكرونولوجيا التجارب العربية الوحدوية الحديثة، سواء تلك التي لم تصمد أمام التحديات والعراقيل التي واجهتها، أو التي استطاعت أن تصمد، مشكلة أمل الإنسان العربي في الوحدة التي تحقق التضامن والقوة، وكان استعراضها معتمدا على التوثيق الرصين للأحداث، وعلى الموضوعية في العرض، والواقعية في استشراف المستقبل، وبذلك تشكل لبنة جديدة في سلسلة الدراسات التي أصدرها مركز زايد للتنسيق والمتابعة، بغية جعل القارئ على بصيرة بماضيه وحاضره ، حتى يكون استشرافه للمستقبل على أسس سليمة، ووفق منطق معقول.

مركز زايد للتنسيق والمتابعة

مقـدمة :

يرتبط مفهوم القومية العربية بمفهوم الأمة، ويختلف ذلك عن مفهوم الدولة، ذلك أن مفهوم الدولة يعني التنظيم السياسي وفقا لمبادئ معينة، وخضوع أفراد الشعب لدستور معين يحدد حقوقهم وواجباتهم، ولقوانين معينة تستخدم هذا الدستور، وتسير وفقا لمبادئه.

أما الأمة وما ينبثق عنها من شعور بالقومية، فأساسها اشتراك في العاطفة والشعور، وارتباط بالماضي والحاضر المستقبل، وطموح لتحقيق أهداف واحدة، وتطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية بما يكفل تحقيق النهضة الشاملة. وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن هناك أمة عربية واحدة تضم الشعوب العربية التي تعيش في ظل دول متعددة يختلف نظام الحكم فيها. ووجود هذه الدول لايحول دون إحساس هذه الشعوب في جميع أنحاء الوطن العربي بما بينها من روابط عاطفية وثقافية، وهو ما يعبر عنه باشتراكها في الإحساس بفكرة القومية.

فالقومية أو الشعور بالانتماء والارتباط بأفراد الأمة، هي تلك الروابط النفسية والثقافية التي تربط مجموعة من الناس ، وتجعل الفرد فيها ينفعل بانفعالاتها، ويرتبط بحاضرها ومستقبلها، ويتشرب لغتها وثقافتها، وتطمع هذه المجموعة من البشر في تحقيق الكيان القومي والمحافظة عليه وتطويره.

وينطوي مفهوم القومية على عناصر شديدة التعقيد والتداخل، ومن هذه العناصر: اللغة ، والوحدة التاريخية، ووحدة الجنس، والوحدة الجغرافية، والتكامل الاقتصادي.



أولاً: مقومات الوحدة العربية

١- اللغة العربية :

اللغة من أهم الروابط التي تربط الفرد العربي بغيره من العرب، لأنها وسيلة التعبير عما يدور في داخل النفس من المعاني المختلفة، وواسطة التفاهم بين البشر. ومما لاشك فيه أن مجموع الأفراد الذين يشتركون في اللغة يتقاربون أكثر من غيرهم، ويتعاطفون أكثر من سواهم، ويتميزون عمن عداهم، فيؤلفون بذلك أمة متميزة عن الأمم الأخرى.

واللغة العربية هي لغة الأغلبية الساحقة لأبناء الأمة العربية، فالبلاد العربية مهما قامت حدود مصطنعة بينها هي كل البلاد التي يتكلم أهلها اللغة العربية... وهذا يؤكد توفر ركن الوحدة اللغوية.[١]

ويعد القرآن الكريم ينبوعا من أجل الينابيع التي تغذي القومية العربية... إذ أنه يضم بين دفتيه مجموعة من النظم والشرائع والحكم ونصوص الأدب، والحض على بعث الهمم، وإيقاظ النفوس ما يكفي لتكوين قواعد أمة عادلة تستطيع أن تنظم المجتمع العربي تنظيما يكفل له الطمأنينة والإبداع. وهذه الثروة القرآنية الثمينة منتظمة في بيان رائع ولغة رشيقة بديعة ذات جرس ورنين.[٢] يقول عز وجل ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا﴾ ويقول جل شأنه ﴿كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون﴾.

كما يقول جل وعلا ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون، قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾.

ثم يخاطب سبحانه وتعالى نبيه قائلا ﴿وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا﴾.

أما الينبوع اللغوي الثاني للقومية العربية فهو الحديث المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو فضلا عن أنه مجموعة من الأدب الرفيع في صحيحه، فهو شرح وتفسير وتأييد لما جاء في القرآن الكريم في أهدافه وماقصده من حيث تهذيب النفوس، ووضع الشرائع والقواعد التي تحفظ المجتمع من الانهيار.

والينبوع الثالث هو الأدب العربي، والمأثور عنه كثير في نظمه ونثره، وهو مايزال أغنية الناس ومرجع الشعراء والأدباء.(٣)

ويضاف إلى تلك الينابيع الحضارة العربية المزدهرة إبان القرون الأولى من ظهور الدعوة الإسلامية، والتي شهدت النبوغ العربي في مختلف الفنون والعلوم والثقافات.

وهكذا وبفضل اللغة العربية توحدت ثقافة العرب، فاللغة وعاء الثقافة، لأنها تشتمل على تاريخ الأمة وثقافتها وتراثها الفكري من علوم ومعارف. لذلك كانت وحدة اللغة تتضمن وحدة الثقافة، فاللغة هي الرباط الروحي القوي الذي يحفظ ويجدد التراث الاجتماعي الذي ينتشر بفضلها بين المواطنين، ويصبحون في وحدة فكرية وشعورية واحدة.

٢- الوحدة التاريخية:

إن العناصر البشرية التي تشغل الحيز العربي هي نتاج الهجرات العربية السامية قبل الميلاد. ففي هذه الحقبة التاريخية البعيدة، كان أجدادنا يصنعون الحضارة، فنجد المصريين القدماء أول من شيد الأبنية الحجرية، وأول من وضع أسس التقويم الشمسي. وفي وادي الرافدين ساهم الشعب البابلي في وضع الأسس لتراثنا الثقافي. ومن جملة ما استحدثه البابليون هندسة القناطر ونظام المقاييس والموازين. ثم نجد الفينيقيين أول من نشر في العالم نظاما خاصا للكتابة بالحروف الهجائية المجردة وعددها اثنان وعشرون حرفا. كما من الله على الجزيرة العربية وتخومها بأن جعلها مهدا للرسالات السماوية.

وجاءت الفتوحات العربية حاملة زادا جديدا ذلك هو الإسلام واللغة العربية، وانتشر الدين الجديد واللغة العربية انتشارا كاسحا في هذه الرقعة من المحيط إلى الخليج، فانصهر الجميع في هذه البوتقة، وخرج منها نتاج رائع قلما يجد له التاريخ نظير. فالفتوحات الإسلامية انقلاب اجتماعي سياسي استرد به الشرق مجده السامي الغابر، وجاء الإسلام مهيبا بالشرق إلى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب.

وهكذا انطبق مفهوم الأمة على مفهوم الدولة، وطلعت على الدنيا دولة عربية واحدة يحكمها خليفة واحد من قلب عاصمة واحدة، ويرفرف عليها علم واحد.

نعم لقد كان سكان هذه المنطقة دائماً معا، ولكن هذه المرة، وبعد أن كانت السيادة لحكم أجنبي، أصبحت السيادة والحكم للعرب أنفسهم، وبدأ التاريخ يسجل بفخار صفحات العروبة المشرقة يوم كانت الدنيا تعمل ألف حساب لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في المدينة أو معاوية بن أبي سفيان في دمشق، أو هارون الرشيد في بغداد. وحينما اتحد العرب من المحيط إلى الخليج، وكانت لهم السيادة، استطاعوا أن يفعلوا الكثير، فلقد حكموا إمبراطوريتين في ذلك الوقت وهما الفرس والرومان.

إلا أنه بعد أن بدأت تظهر الحركات الانفصالية عن الحكومة المركزية.. تفكك العرب، ولم يعد العالم يخشى بأسهم، واندلعت الحروب الصليبية، وهاجم المغول الأراضي العربية، ثم جاء الاستعمار الأوروبي ليسقط الأمة العربية تحت سيطرته، وأخيرا استيقظت الأمة العربية، وسمعنا النداءات تدوي بالتخلص من الاستعمار الغربي والحكم التركي، فكانت الثورات التحررية متزامنة مع بعضها البعض في المشرق والمغرب، فكأن جميع أقاليم العالم العربي كانت على ميعاد كي تطلق حركاتها التحررية. ولكن وقبل أن يرحل الاستعمار عن المنطقة العربية، طعن الأمة العربية بخنجر جاء في جزء عزيز علينا من قلب العروبة... طعننا طعنة قوية لاتزال تنزف حتى الآن، فقد نجح الاستعمار في إقامة إسرائيل من جمع شراذم يهود العالم وزرعهم في قلب الأمة العربية، ولازال درب النضال طويلا، ولازلنا على الدرب نسير.

وهذا التاريخ الواحد أدى إلى تقارب في العواطف والنزعات، وإلى تماثل في ذكريات المفاخر والمصائب، وإلى وحدة الوجدان. ووحدة التاريخ ليست مجرد نظرة إلى الماضي فقط ، وإنما تمتد إلى استشراف المستقبل حتى تشمل وحدة الهدف ووحدة المصير.[٤]

وطبقا لما ذكره أبو خلدون ساطع الحصري فإن «الأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها، وأصبحت في حالة السبات، وإن لم تفقد الحياة. وتستطيع هذه

الأمة أن تستيعد وعيها وشعورها بالعودة إلى تاريخها القومي، وبالاهتمام به اهتماما فعليا». (٥)

٣- وحدة السلالة والجنس:

يثير بعض المفكرين مبدأ وحدة الجنس كأساس هام من أسس تكوين الأمة، وأنه عامل من عوامل الشعور بالقومية، إلا أنه لايوجد بتاتا ما يسمى بالجنس النقي، كما أن الفكرة القائلة بتفاوت الأجناس من حيث الرقي والانحطاط، وبتفوق جنس على آخر، فكرة أساسها التعصب العنصري والأطماع السياسية.

والحقيقة أن الإحساس بفكرة القومية لابفكرة العنصر أو الجنس هي التي تربط الناس بروابط متينة من وحدة الشعور ووحدة التفكير ووحدة الهدف.

ومع ذلك فإن علماء الأجناس يدللون على أن الشعوب التي عاشت في المنطقة العربية منذ فجر التاريخ يغلب عليها العنصر العربي السامي. فالهجرات الأولى لكل العالم العربي كان منبعها الجزيرة العربية، وجاءت هذه الهجرات من قلب الجزيرة إلى الشام ووادي النيل وشمال أفريقيا متخذة طريق سيناء أو عبورا لمضيق باب المندب وصولا إلى أفريقيا. ومن هذه الحقائق التاريخية تتضح لنا حقيقة تسرب الدماء العربية إلى المنطقة العربية بما فيها بلاد المغرب العربي قبل ظهور الإسلام بآلاف السنين، ثم أصبحت المنطقة كلها مهجرا للموجات العربية الصريحة بعد ظهور الإسلام.

وهكذا يتضح أن وحدة الجنس - مع عدم إغفال حقيقة اختلاط الأجناس - متوفرة بعمق في الوطن العربي الكبير منذ أقدم الأزمنة التاريخية حتى الآن. ولايدحض هذه الحقيقة القول بأنه في مختلف أنحاء الوطن العربي هناك جماعات تمت إلى غير الجنس العربي، وأن دماء غير عربية تجري في عروق بعض سكانها، فإن هذه الأقليات امتزجت بالعرب والبيئة العربية، وانطبعت بالطابع العربي. والخلاصة أنه لايوجد في العالم جنس نقي، ولكن العناصر البشرية التي تشغل الحيز العربي كلها من الجنس العربي السامي.

٤- الوحدة الجغرافية:

إذا ألقينا نظرة على خريطة الوطن العربي نجده يمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى الخليج العربي شرقا، ومن البحر المتوسط وجبال طوروس شمالا إلى الصحراء الكبرى جنوبيا. وبالتالي نجد جزء من الوطن العربي يقع في قارة آسيا، وجزء آخر يقع في قارة أفريقيا. وعلى طول هذا الامتداد الجغرافي الشاسع، لاتوجد حواجز طبيعية تفصل أجزاء الوطن العربي بعضها عن بعض، فليس هناك محيط كبير يحجز إحداها عن الاخرى، وليست هناك سلسلة جبال عالية تفصل هذه عن تلك.

والبحر الأحمر نفسه ، والذي يفصل الجزء الأفريقي العربي عن الجزء الاسيوى، فإنه في الواقع كان من عوامل الربط والاتصال، وليس من عوامل الانفصال، لأن السفن العربية منذ فجر التاريخ كانت تعبر هذا البحر من الموانيء المصرية والسعودية واليمنية والسودانية.

وعلى ذلك فالوحدة الجغرافية متوفرة كعنصر من عناصر القومية العربية.

٥- التكامل الاقتصادي:

تمتد الأرض العربية من الخليج إلى المحيط على رقعة شاسعة من الأرض، مما أدى إلى اختلاف الظروف المناخية، ومن حيث درجة الحرارة وكمية المطر، وبالتالى تنوع الانتاج النباتي والحيواني، كما مّن الله على غالبية أراضي الوطن العربي بكميات هائلة من البترول والفوسفات والمنجنيز وغيرها، مما حقق وجود ثروة معدنية هائلة.

ومن المفيد في هذا الإطار أن نشير إلى أن العالم المعاصر يعيش فترة تشكيل الكيانات العملاقة والتجمعات الاقتصادية الكبرى، وبالتالي فإن الدول العربية متحدة يمكنها أن تواجه بطريقة أفضل تلك الكيانات الدولية العملاقة، وذلك للحفاظ على المصالح الحيوية للوطن العربي. لأن اتحاد الدول العربية سيجعلها في وضع أفضل من المساومات الفردية الجزئية لكل دولة عربية على حدة مع تلك الكيانات الكبرى،

وهذه هي الفكرة الأساسية التي يتضمنها مشروع السوق العربية المشتركة في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية التي هي في الواقع تشكل تجمعا لأكثر من خمسين دولة أو ولاية أمريكية، والاتحاد الأوروبي الذي تشكل من اتحاد خمس عشرة دولة أوروبية متطورة، وغيرها من التشكيلات العالمية.

والواقع فإن البلاد العربية تمتلك قوة اقتصادية هائلة إذا ما أحسن توجيه ثرواتها البشرية والمادية، واستثمرت استثمارا منتجا، ولاشك أن تنسيق السياسات الاقتصادية العربية، ووضع تخطيط شامل لها يجعل من مصادر الثروة الموجودة في العالم العربي قوة إنتاجية كبرى يمكن الاستفادة منها في رفع مستوى معيشة المواطن العربي، فلا تعود معظم خيراتها إلى شركات الاحتكارات والاستغلال الأجنبية، وبذلك تصبح ثروات العرب للعرب. (٦)

ثانيا: أنواع النظم الاتحادية:

تكلمنا عن مقومات الوحدة العربية، ولكن المفكرين العرب الذين تحدثوا عن القومية العربية لم يكن لديهم مفهوم واضح عن مغزى الفكر القومي [٧]، وأهم النظم الاتحادية، وبالتالي فمن المفيد توضيح أنواع هذه النظم، لأنه بدون ذلك التوضيح فإن الأمر قد يبدو غامضا بعض الشيىء، فما هي أنواع النظم الاتحادية؟

النظم الاتحادية كثيرة ومتنوعة، فمنها الاتحاد الشخصي والاتحاد الفعلي، والنظام التعاهدي أو الكونفدرالي والنظام الاتحادي أو الفيدرالي.

١- الاتحاد الشخصي:

يتكون الاتحاد الشخصي بين دولتين تحت عرش واحد، مع احتفاظ كل منهما باستقلالها الداخلي والخارجي. ويترتب على احتفاظ كل من الدولتين بكامل سيادتها الداخلية والخارجية ألا تلتزم إحداهما بما تعقده الأخرى من اتفاقات ومواثيق دولية، وما تصدره من قوانين داخلية. بل يجوز أن تكون لكل من الدولتين سياسة مستقلة، وأنظمة دستورية مختلفة، فقد تتبع إحداهما مثلا نظام المجلسين النيابيين، في حين تكون الأخرى ذات مجلس واحد. أو قد تكون إحداهما ملكية برلمانية، بينما تكون الأخرى ملكية مطلقة. كما أن كلا من الدولتين تظل مستقلة بجنسيتها الخاصة، وتتحمل تبعة المسؤولية الدولية عن أعمالها. ومن أمثلة هذا النوع من الدول المركبة الاتحاد الذي قام بين إنجلترا وهانوفر سنة ١٧١٤ عندما تولى أمير هانوفر عرش إنجلترا بالوراثة، ولما تولت الملكة فيكتوريا العرش انتهى الاتحاد، لأن قانون التوارث في مملكة هانوفر كان لايبيح للسيدات تولي الحكم، إلا في حالة انعدام الذكور كلية في جميع فروع الأسرة المالكة. وبناء على ذلك فقد صارت هانوفر دولة صغيرة حتى ضمتها بروسيا، ثم أصبحت ولاية ألمانية بعد قيام الوحدة الألمانية.

وهناك أيضا مثال الاتحاد بين هولندا ولوكسمبرج بين عامى ١٨١٥ و ١٨٩٠ لعوامل وراثية. ويضاف إلى ذلك الاتحاد بين إيطاليا وألبانيا بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٣ بعد

الاكتساح الفاشستي لألبانيا. ولكن على أثر هزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية، ثم إعلان استقلال ألبانيا في ١١ سبتمبر ١٩٤٣. [٨]

وبالنسبة للعالم العربي فإن المعاهدة العراقية الأردنية لعام ١٩٤٧ بين المملكة العراقية والمملكة الأردنية الهاشمية كانت محاولة للاتحاد الشخصي بين العرشين الهاشميين وكانت نواة للاتحاد الهاشمي سنة ١٩٥٨ وقبل قيام الثورة العراقية.

ولكن هذا الاتحاد بين الدولتين سقط بمجرد قيام الثورة العراقية وسقوط النظام الملكي في العراق.

ونستخلص مما سبق أن رابطة الاتحاد الشخصي تعد من أضعف الروابط الاتحادية، ومن أقلها دواما لأنها ترتكز على فرد أو أسرة بعينها، أو بسبب استخدام القوة وتبريرها باسم الاتحاد.

٢- الاتحاد الفعلي:

يتكون الاتحاد الفعلي من انضمام دولتين أو أكثر في شكل اتحاد دائم تحت رئيس أو ملك واحد. وتكون الهيئة الحاكمة في الاتحاد واحدة في كل الشؤون الخارجية وبعض الشئون الداخلية، وتكون مزدوجة في الشؤون الداخلية الأخرى. فالفارق الرئيسي بين الاتحاد الشخصي والاتحاد الفعلي أنه في الاتحاد الفعلى تقوم إلى جانب شخصية الملك أو الرئيس المشترك بين الدولتين هيئات حكومية مشتركة، بينما الاتحاد الشخصي تتمثل الرابطة فيه بين الدولتين في شخص الملك أو الأسرة الحاكمة فحسب. ومن أمثلة الاتحاد الفعلي الاتحاد السويدي النرويجي (١٨١٥ - ١٩٠٥) والاتحاد النمسوي المجري (١٨٦٧-١٩١٨) والاتحاد الدنمركي الأيسلندي (١٩١٨-١٩٥٤). [٩]

وبالنسبة للعالم العربي فيعد مثال الوحدة الاندماجية المصرية السورية (١٩٥٨-١٩٦١) - والتي سوف نتكلم عنها بالتفصيل فيما بعد - خير مثال للاتحاد الفعلي بين دولتين.

وواضح أنه من الناحية القانونية، فإن المعاهدات التي يبرمها الاتحاد الفعلي تقيد الدول الأعضاء فيه، وأن التمثيل الدبلوماسي الخارجي يكون موحدا بين الدول الأعضاء، كما أن الدول الأعضاء تتحمل معا المسؤولية الناجمة عن الأعمال التي تصدر من الاتحاد. أما الحروب التي يعلنها الاتحاد أو تعلن عليه، فتشترك فيها آليا كل دول الاتحاد، كما أن الحروب إذا وقعت بين الدول الأعضاء في الاتحاد وبعضها تعتبر حروبا أهلية.

وفي هذا الإطار، تجب الإشارة إلى أنه من الناحية الجغرافية السياسية، فإنه يعتبر التلاصق الجغرافي بين دول الاتحاد الفعلي من العوامل الجوهرية التي تساعد على تقويته، فإذا ما تباعدت الدول جغرافيا - كما حدث في الوحدة المصرية السورية والتي سنتكلم عنها بالتفصيل فيما بعد - فالعوامل الانفصالية التي من أهمها النزعات القومية المحلية تتغلب في الأكثر على العوامل الاتحادية التي يكون عدم التلاصق الجغرافي من أهم أسباب ضعفها.

٣- النظام التعاهدي (الكونفدرالي):

تتكون الدولة التعاهدية أو الكونفدرالية من مجموعة من الدول تتفق فيما بينها بمقتضى معاهدة دولية على إقامة هيئة مشتركة تمنح سلطات سياسية خاصة تتمكن بموجبها من الإشراف على سياسات حكومات الدول الأعضاء.

والهيئة التعاهدية تتميز بأنها ليست لها شخصية دولية، رغم ما لها من أهمية سياسية في توجيه سياسات الدول الأعضاء، كما أنها ليست لها أية سلطة مباشرة على رعايا الدول الأعضاء، هذا بالإضافة إلى أنها ليست لديها سلطة لتنفيذ قراراتها، بل إن سلطتها مقصورة على رسم السياسة العامة، وإصدار التوصيات للدول الأعضاء لتنفيذ القرارات على الوجه الذي تراه كما أن الهيئة التعاهدية ليس لها إيرادات خاصة، ولكن مواردها تنحصر فيما تتلقاه من أنصبة الدول الأعضاء.

كما تتميز الدول الأعضاء في اتحاد تعاهدي بأنها تظل متمتعة بشخصيتها الدولية الكاملة، فلكل منها حق الانفراد بعقد المعاهدات الدولية، وحق الانفراد بالتمثيل

الدبلوماسي، بل لها أن تقوم منفردة بإعلان الحرب. وتحتفظ كل دولة في ظل هذا النظام بنظامها السياسي وبدستورها. ويصح أن يجمع التعاهد بين دولة خاضعة للنظام الملكي وأخرى لها نظامها الجمهوري.

وللدول التعاهدية عدة أمثلة: منها تعاهد الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية بين عامي (١٧٨١ و ١٧٨٧)، والتعاهد السويسري (١٨١٥- ١٨٤٨) والتعاهد الجرماني (١٨١٥- ١٨٦٦).

وواضح أن الدول التي يتكون منها التعاهد يجب أن تكون دولا مستقلة ذات سيادة، وأنها تعاهدت بمحض رغبتها. ويتم التعاهد عن طريق إبرام معاهدة دولية. وتصدر القرارات النابعة عن هذا التنظيم بالإجماع أو بأغلبية كبيرة تقترب من الإجماع .

وقيام تلك التعاهدات كان مصدرها غالبا وجود خطر مشترك تتعرض له هذه الدول، أو عدو خارجي يهدد استقلالها ووحدتها. كما أنه في كل تعاهد تكون هناك في الغالب دولة تتزعم الحركة الاتحادية سياسيا أو عسكريا، فكانت الزعامة لبروسيا في الاتحاد الجرماني الذي قام سنة ١٨٦٧، وكانت لمقاطعة زيورخ في التعاهد السويسري.

ويمكن القول في هذا الصدد إنه ليس بالإمكان استتباب التعاهد إلا إذا قام على تضامن إقليمي حقيقي. والوحدة الجغرافية واللغة المشتركة، والتكامل الاقتصادي، والوجدان المشترك من العوامل التي تساعد على استتباب التعاهد.[١٠] والواقع فإن الوطن العربي وما يتمتع به من مقومات الوحدة التي ذكرناها آنفا، هذا بالإضافة إلى مواجهته حاليا لأخطار الحركة الاستعمارية الصهيونية الحديثة، فإن هذا النوع من أنواع الاتحاد أي النظام التعاهدي (الكونفدرالي) قد يكون ملائما لتحقيق الوحدة العربية المنشودة.

٤- النظام الاتحادي أو الفيدرالي:

تتكون الدولة الاتحادية من مجموعة من الدول انضم بعضها إلى بعض بمقتضى دستور في شكل اتحاد دائم تسوده هيئة مركزية تمارس سلطتها بطريق مباشر على

حكومات هذه الدول وعلى رعاياها. ويترتب على ذلك فقدان دول الاتحاد لشخصيتها الدولية لتكون كلها شخصا دوليا واحدا وجنسية واحدة.

وتنشأ الدولة الاتحادية إما نتيجة اتفاق دول مستقلة، وهذا هو الغالب، كما حدث بالنسبة لنشأة الولايات المتحدة الأمريكية، ونشأة الاتحاد السويسري أو الاتحاد الالماني، فهذه كلها دول تعاهدية وانقلبت إلى دول اتحادية. أو قد تنشأ الدولة الاتحادية نتيجة انفصال الولايات عن دولة موحدة بسيطة مع رغبتها في أن تستمر مرتبطة ببعضها في ظل النظام الاتحادي. فالبرازيل كانت دولة بسيطة ثم ما لبثت أن تحولت إلى دولة اتحادية سنة ١٨٥٧.

والدول الاتحادية كما هو الحال بالنسبة لكافة الدول المركبة تقوم أصلا للتوفيق بين تيارين متضادين: أولهما هو التيار الاتحادي الناشئ عن عوامل تدعو إلى الوحدة، وأما الثاني فهو التيار الانفصالي الناشئ عن عوامل تستمد من رغبة الشعوب والجماعات في التمتع بأكبر قسط من الاستقلال. وتيار الاتحاد يتمثل في تنظيم الهيئة الاتحادية أو الحكومة المركزية، أما تيار الاستقلال فيتمثل في نظم الولايات.

والهيئة المركزية التي تتولى شؤون الاتحاد تتكون بوجه عام من ثلاث سلطات هي السلطة التشريعية الاتحادية، والسلطة التنفيذية الاتحادية، والسلطة القضائية الاتحادية.

وتتكون السلطة التشريعية الاتحادية في الغالب من مجلسين: الأول يتألف من ممثلي الولايات، فيكون لكل منها نائب مهما يكن شأن هذه الولايات من ناحية المساحة والكثافة السكانية. وبذلك تتم المساواة القانونية المنشودة بين الدول أعضاء الاتحاد. أما المجلس الثاني فينتخب من الأفراد بوصفهم مواطنين في دولة الاتحاد، شأنه في ذلك شأن البرلمان في الدولة البسيطة، وبالتالي يكون ممثلو الولايات الكبيرة أكثر عددا من ممثلي الولايات الصغيرة، وفي ذلك تعبير عن عدم المساواة بين الدول الأعضاء في الاتحاد. فاعتبار المساواة ظاهر في المجلس الأول، وهو مجلس الولايات، واعتبار عدم المساواة ظاهر في المجلس الثاني، وهو المجلس الشعبي. وهذان

المجلسان يقومان بوضع القوانين الاتحادية التي تسري على مختلف أنحاء الدولة الاتحادية، ولو أن تنفيذ هذه القوانين في داخل الحكومة الأقليمية لأي ولاية من الولايات موقوف على الحكومة المحلية.

كما تتكون السلطة التنفيذية الاتحادية من رئيس الدولة وحكومة الاتحاد. ورئيس الدولة قد يكون ملكا، ففي الدولة الاتحادية الألمانية التي قامت بين عامي ١٨٧١و ١٩١٩ كان ملك بروسيا رئيسا للدولة الاتحادية، ولقبه إمبراطور ألمانيا. وقد ينتخب الرئيس من مجموع رعايا الدولة الاتحادية بطريق مباشر كما حدث في ألمانيا بعد سنة ١٩١٩. وقد ينتخب بطريق غير مباشر، أي عن طريق الهيئة التشريعية الاتحادية. فبعض الدساتير الاتحادية تعهد إلى مجلس الاتحاد في اجتماع على هيئة مؤتمر بانتخاب رئيس الدولة أو الهيئة التنفيذية الاتحادية التي تعد بمثابة رئيس الدولة كما هو الشأن في سويسرا.

أما السلطة القضائية الاتحادية فتتكون عادة من محكمة عليا ينتخب أعضاؤها بمعرفة السلطة التشريعية. وإلى جانب كون هذه المحكمة مختصة باستئناف أحكام المحاكم المحلية التابعة للولايات، فإن لها اختصاصات أخرى، كفض المنازعات بين الولايات، أو بين الولايات والحكومة المركزية، وكذلك مراقبة دستورية القوانين التي تصدرها الهيئات التشريعية لمختلف الولايات.

ومن الدول الاتحادية القائمة الآن، والتي تمارس حياة سياسية موافقة للنظم الاتحادية الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السويسري وألمانيا والهند. (١١)

هذه هي أنواع النظم الاتحادية، وكما ذكرنا، فإنه مع الإعداد الجيد والمدروس، فإن النظام التعاهدي الكونفدرالي قد يكون ملائما لتحقيق الوحدة العربية المنشودة.

ثالثاً: دولة الوحدة العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر:

إن دولة الوحدة العربية التي حققها والي مصر محمد علي بالقوة في النصف الأول من القرن التاسع عشر ليست المثال الجيد لتحقيق الوحدة، لأننا نأمل في تحقيق الوحدة العربية من حقيقة أنها لخير الأمة العربية كلها، ولذلك نفضل أن تتحقق الوحدة عن طريق الاقتناع الكامل لشعوب الأمة العربية بأهمية هذه الوحدة في تحقيق المصالح العربية العليا. ومع ذلك فإن تحقيق الوحدة العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر يعد تجربة فريدة في نوعها، ويحتاج الأمر إلى رصدها، ورصد المؤامرات الأوروبية بعامة والبريطانية بخاصة لوأد هذه الوحدة قبل أن تتسع حدودها، وتشمل الوطن العربي كله، وبالتالي ينتج عن ذلك مؤثرات سياسية واقتصادية خطيرة بالنسبة للمصالح البريطانية في الشرق الأدنى والهند في مرحلة الاستعمار البريطاني.

١- مصر والجزيرة العربية:

بعد أن شيد الوالي محمد علي مكانة راسخة له في مصر، ساقته الظروف بصفة عامة كي يصبح شبه حاكم مستقل في مصر، وليس فقط نائبا عن السلطان العثماني.(١٢)

وقد أضمر محمد علي طويلا رغبته في ضم الجزيرة العربية، إلا أن الباب العالي العثماني كان يشك في الأطماع الكامنة وراء هذه الرغبة، وبالتالي لم يشجع تحقيق هذا المشروع على يد هذا الوالي الطموح. (١٣)

وكان العثمانيون منذ أن استولوا على الحجاز في القرن السادس عشر قد اتخذوا من جدة قاعدة لحكمهم هناك، واستمر الحجاز تابعا لهم إلى أن استولى عليه السعوديون الذين اعتنقوا مبادئ الدعوة السلفية (الوهابية) ولما وصلت الأمور عند

هذا الحد أيقن السلطان العثماني سليم الثالث أنه ينبغي مواجهة السعوديين الذين أظهروا عداءهم الصريح لدولة الخلافة العثمانية. (١٤)

والوهابية دعوة دينية انتشرت في الجزيرة العربية في منتصف القرن الثامن عشر، ومؤسسها هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب .(١٥)

وفي إشارة قصيرة يمكن القول إن الحركة السلفية (الوهابية) ظهرت في إقليم نجد، وهو إقليم عربي كان بعيدا عن سلطة الدولة العثمانية. ويمتاز أهله بحب الحرية والاستقلال. وقد راع الشيخ محمد بن عبد الوهاب انتشار البدع والمنكرات، وتعظيم الناس للقبور والأضرحة والأحجار والأشجار، وابتعادهم عن روح الإسلام الصحيحة وعن الوحدانية السليمة التي جاء بها، إذ كانوا يستغيثون بالأولياء ويقدمون لهم النذور، ويتشفعون بهم لجلب منفعة أو لدفع ضرر. (١٦) ويطلق بعض الكتاب على هذه الدعوة السلفية اسم المذهب، كما يطلق عليها البعض الاخر اسم الوهابية الذي اشتهرت به، والحقيقة أن استعمال هذين الوصفين للدعوة غير دقيق، فهي ليست بمذهب جديد في الإسلام حتى يصح إطلاق لفظ المذهب عليها، بل إن صاحب الدعوة نفسه كان حريصا على أن يؤكد للناس أنه لايدعوهم إلى مذهب جديد في الإسلام، ولذا نرى أن وصف الدعوة بالمذهب فيه مغالاة، لأن الشيخ لم يأت بمذهب جديد ، بل دعا إلى تخليص سلوك المسلمين لما علق به من بدع وخرافات، والعودة إلى بساطة الإسلام الأولى. أما وصف الدعوة بالوهابية فقد أطلقه عليها خصوم الشيخ، حتى يبرهنوا للناس أن المبادئ التي يدعو إليها بدعة جديدة. أما أتباع الدعوة، فقد أطلقوا على أنفسهم الحنابلة أو الموحدين أو السلفيين. (١٧) ويعتبر دخول الأمير محمد بن سعود في عام ١٧٤٥ في الدعوة السلفية النواة الأولى في صرح الدولة السعودية الأولى.

على أية حال انتشرت مبادئ الدعوة السلفية بسرعة بين القبائل المختلفة في نجد، وازدادت معها القوة السياسية للسعوديين، فقد استطاع سعود الأول أن يستولي على مكة في عام ١٨٠٣، وأن يدخل المدينة بعدها بعامين. (١٨)

وقد تقدم السعوديون إلى أرض اليمن، وانضمت إليهم بعض القبائل التي خرجت عن طاعة الإمام المنصور [٢٠]، مما دعاه إلى طلب معاونة السلطان العثماني ووالي مصر محمد علي لصد هجوم السعوديين فوعداه بالمساعدة. [٢٠]

ولابد من التأكيد في هذا الصدد على أن الجزيرة العربية لم تكن في ذلك الوقت من المناطق الغنية التي يجب على السلطنة العثمانية أن تضحي بالكثير من أجلها، فلم يكن قد اكتشفت بعد تلك الثروة البترولية الهائلة القابعة تحت أرضها، إلا أن بقاء هذه البلاد في يد الخليفة العثماني كان أمرا مرغوبا فيه حتى تتحقق الناحية الروحية لخلافته، وحتى لايكون هناك مجال للشك في قدرته على حماية الحرمين الشريفين.[٢١] إلا أن الدولة العثمانية كانت تقاسي في ذلك الوقت من مشكلات داخلية خطيرة، [٢٢] ولم يجد السلطان العثماني تحت يده القوات اللازمة لمواجهة السعوديين، مما اضطره إلى أن يلجأ إلى والي مصر محمد علي، وكلفه بالقيام بتلك المهمة سنة ١٨٠٧ ثم كرر طلبه في العامين التاليين. [٢٣]

ونحن لن ندرس بالتفصيل معارك السعوديين الكبيرة التي انتهت بهم إلى تلك السيطرة على مناطق شاسعة من الجزيرة العربية، ولكن نؤكد أن هذا التوسع أدى بالسلطان العثماني إلى أن يكرر طلبه إلى محمد علي في ١٠ سبتمبر سنة ١٨١٠ بأن يجرد حملة لمواجهة هذا التوسع السعودي. [٢٤]

وقد اضطر السلطان العثماني إلى طلب تنفيذ هذه العملية من محمد علي - رغم شكوكه في نوايا هذا الوالي الطموح - لأن التهديد السعودي كان قد اتخذ شكلا خطيرا، حتى أنه أصبح من الضروري - من وجهة النظر العثمانية - اتخاذ إجراءات فعالة لتلافي حدوث أية نتائج أشد خطورة. وفي نفس الوقت فإن محمد علي كان قد شيد لنفسه في مصر مكانة راسخة، والباب العالي لن يضيره أن يقحم هذا الوالي القوي في مشروع يستحوذ على كل مجهوداته، ويبعده عن طريق الانفصال عن دولة الخلافة العثمانية. كما أن هذا الوالي إذا مُني بالهزيمة، فإن ذلك سيكون في مصلحة السلطنة، التي يمكنها إخضاعه بعد ذلك. ومن ثم تطورت الأمور، وصدرت للوالي التعليمات باتخاذ الخطوات اللازمة لمواجهة السعوديين في الجزيرة العربية. [٢٥]

وقد اهتم محمد علي بذلك المشروع بعزيمة صادقة. (٢٦) إلا أن الأمر من جانبه لم يكن مجرد طاعة للسلطان العثماني، بل إن المسألة كانت أعمق من ذلك بكثير... لأن أحلام الوالي كانت في تحقيق الوحدة العربية في المشرق العربي، وأن تكون الجزيرة العربية هي مشروعه الأولي لتحقيق ذلك الإنجاز. كما أنه إذا نجح الوالي حيث أخفقت دولة الخلافة العثمانية، واستطاع استخلاص الحرمين الشريفين من السعوديين، فإن ذلك سوف يؤدي إلى توطيد مركزه وعلو مكانته حيال العالم العربي، وبالتالي يمكنه تحقيق أحلامه في إقامة الدولة العربية الموحدة في المشرق العربي.

وعلى أية حال، فقد اهتم محمد علي بمسألة الحملة على الحجاز ونجد اهتماما كبيرا، وأصبحت السويس مركزا حربيا ضخما. (٢٧) وجهز الوالي أسطولا مؤلفا من ١٥ سفينة، ونقلت على ظهور الإبل إلى السويس.

ونحن لن نتتبع معارك محمد على في الجزيرة العربية، ولكن نقرر فقط أن الحملة المصرية شقت طريقها إلى هناك في سبتمبر ١٨١١. (٢٨) وبعد معارك عنيفة ظهر القائد إبراهيم باشا بن محمد علي على رأس قواته في ٦ أبريل ١٨١٨ بالقرب من الدرعية عاصمة السعوديين، وأسدل الستار على الفصل الأخير من الدولة السعودية(٢٩) الأولى ، وسقطت العاصمة السعودية بالفعل في ٩ سبتمبر ١٨١٨. وبعد ذلك أرسلت بعض القوات المصرية إلى الأقاليم المجاورة، لاحتلال المدن المختلفة، فتوغلت هذه القوات إلى سواحل الخليج العربي، واحتلت القطيف مما أغضب السلطات البريطانية، التي لم تكن مستعدة لأن تواجه توسعا مصريا في مناطق متاخمة لمناطق نفوذها في الخليج العربي في ذلك الوقت. (٣٠) وأوفدت بريطانيا ضابطا بريطانيا هو الكابتن سادلير Sadlier بسرعة لمقابلة إبراهيم باشا في الدرعية لمعرفة نوايا الحكام الجدد في الجزيرة العربية بغرض القضاء على أي اتجاه قد يكون لديهم نحو وضع قدم لهم على سواحل الخليج العربي، والذي كانت بريطانيا تود جعله بحيرة بريطانية نتيجة لأهميته السياسية. (٣١)

وهكذا كان لوصول المصريين إلى الجزيرة العربية وامتداد سيطرتهم إلى أجزاء من سواحل الخليج العربي أثره على السياسة البريطانية من ناحية سرعتها في تنفيذ أدوارها التي كانت ترمي إلى الاستيلاء الكامل على سواحل ذلك الخليج الهام.

ومن ناحية أخرى، كان واضحا منذ اللحظة التي نزلت فيها القوات المصرية أرض الجزيرة العربية، أن محمد علي كان يرغب في بسط نفوذه على اليمن. وكان الشريف حمود (شريف أبو عريش) يستحوذ على المنطقة الساحلية ، وكان هذا الرجل ينضم إلى السعوديين تارة، وإلى المصريين تارة أخرى طبقا للموقف، وحسب مصالحه. ولما كان محمد علي يرغب في ضم اليمن، فإنه وضع نصب عينيه مسألة القضاء على حمود، ولهذا الغرض قام محمد علي بالاتصال بإمام صنعاء [٣٢] الذي سره كثيرا أن يوافق على اقتراحات تضمن له السيطرة على أراض لم تكن في حوزته في ذلك الوقت، وتضمنت المباحثات موافقة الباشا على أن يعيد لسلطة الإمام كل المناطق الداخلية والتي كانت تابعة للأئمة السابقين. [٣٣]

وهكذا تعطل مشروع محمد علي في ضم اليمن لانشغال مصر بضم سوريا إلى الدولة العربية، ولحدوث بعض الفتن في القوات المصرية في الجزيرة العربية. [٣٤]

إلا أنه في عام ١٨٣٦ أعد محمد علي حملة بقيادة إبراهيم باشا يكن لضم اليمن إلى الدولة العربية. وبعد مصادمات كبرة، تقدم الجيش المصري إلى داخل اليمن، واحتل بعض الثغور. وفي نفس الوقت تقدم القائد خورشيد بك على رأس حملة مصرية أخرى، وزحف على الأحساء، ووصل إلى شاطىء الخليج العربي، وجمع عدة سفن واحتل جزائر البحرين في الخليج، ولما رأت القبائل قوة وزحف الجيش المصري، أقبلت تقدم له الطاعة، وامتدت سلطة مصر إلى سواحل الخليج العربي. [٣٥]

أما بالنسبة لليمن، فقد توغل إبراهيم باشا يكن على رأس قواته إلى داخل اليمن، ولم تكن تعوزه السياسة لإتمام فتح هذه الولاية، فقد تفاوض في ٧ يونيو ١٨٣٧ مع حكام مدينة تعز في أمر تسليمها، وتم الاتفاق على ذلك، ودخلت القوات المصرية إلى تعز دون أية مقاومة. [٣٦] واستتب الحكم المصري في أنحاء اليمن.

لقد كان التوسع المصري في الجزيرة العربية بداية تحقيق حلم محمد علي في إقامة الدولة العربية الكبرى في المشرق العربي، ومن الواضح أن تحقيق هذا الهدف كان يشكل خطرا كبيرا على المصالح البريطانية، لأن السيطرة المصرية على الجزيرة العربية أدت بالتالي إلى سيطرة مصر على البحر الأحمر والخليج

العربي.[٣٧] والواقع أن محمد علي لم يشأ في البداية الاصطدام بالإنجليز، إلا أنه لم يكن من السهل أن تسلم بريطانيا بالنفوذ المصري في مناطق قريبة من مناطق نفوذها، وعلى الطريق إلى الهند. وقد ظهرت المعارضة الواضحة من جانب الحكومة البريطانية عقب احتلال خورشيد باشا للأحساء والقطيف، إلا أنها عندما وجدت استعداد شيوخ البحرين للاعتراف بالسيادة المصرية، رأت أنه من الحكمة عدم القيام بعمل عسكري، وطلبت من الكولونيل هنل Hennel المقيم البريطاني في الخليج أن يعمل على وقف الضغط المصري بالوسائل الدبلوماسية وقد أوضح هنل في تقرير له إلى حكومة الهند البريطانية أنه وجد الشيوخ العرب الذين زارهم أكثر تقديرا وتقاربا مع القوات المصرية [٣٨] وتؤكد الوثائق المصرية أن شيوخ البحرين رحبوا ترحيبا كبيرا بالمصريين أملا في التخلص مما كان يحيق بهم من أخطار الفرس والإنجليز. [٣٩]

وهكذا بدأت الاحتكاكات بين محمد علي والسياسة البريطانية في المنطقة... وطبقا لما أوردته الوثائق البريطانية، فإن أهداف محمد علي كانت تتلخص في أن «يرسل فرقة من قواته من المخا للاستيلاء على عدن وميناءها العظيم الذي يتحكم في مدخل البحر الأحمر، وبعد ذلك تتقدم القوات المصرية إلى حضر موت المقسمة بين العديد من الأمراء والشيوخ الضعاف، وبعد ذلك تتقدم القوات المصرية إلى عمان، وأخيرا إلى مسقط والمنطقة الواقعة في الجانب الغربي من الخليج العربي، بحيث يصبح محمد علي مسيطرا على كل شبه الجزيرة العربية... وبعد أن يتم له ذلك، فإن الاستيلاء على بغداد سوف يكون أمرا سهلا». [٤٠]

وطبقا للوثائق البريطانية، فإن الساسة الإنجليز كانوا يعتقدون في ذلك الوقت أن محمد علي لديه مخططات واسعة لإقامة دولة عربية موحدة في الشرق العربي، والغالب أن الوالي كان يعتنق مثل هذه الرغبة، فكما سيتضح فيما يلي فإن ضم سوريا والجزيرة العربية والسودان جعل محمد علي في موقف قد يسمح له بتنفيذ هذا المشروع الضخم، وبقيت فقط العراق وبقية الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية كي يمكنه تحقيق حلم الوحدة العربية.

ومن الناحية الاقتصادية فإن تلك المناطق لم تكن لتحقق مزايا اقتصادية كبيرة لمحمد علي عدا استخراج اللؤلؤ من الخليج العربي، هذا بالإضافة إلى أن سكان هذه البلاد كانوا من القبائل البدوية التي لاترغب في وجود حكومة منظمة خصوصا إذا ما صحبتها النظم الضرائبية.

إلا أنه بينما كانت هذه المناطق تتمتع بأهمية اقتصادية ضئيلة، فإنها كانت لها مزاياها الهامة الأخرى، فإن العراق سيجعل الدولة العربية المتحدة تتصل بفارس، وعبر فارس مع وسط آسيا. كما أن ضم مصر لجنوبي الجزيرة العربية سيجعل من محمد علي سيدا للبحر الأحمر والخليج العربي اللذين تمتعا في كل العصور بأهمية استراتيجية فائقة.. وقد يؤدي ذلك إلى السيطرة العربية على الحركة الملاحية بين الشرق والغرب. (٤١)

وعلى أية حال، فإنه عندما تواترت أنباء هذه المخططات المصرية بالنسبة لعدن ومسقط وبغداد ، وكذلك بالنسبة لسواحل مدخل البحر الأحمر الجنوبي وخارج مضيق باب المندب، أبلغت الحكومة البريطانية محمد علي بأنها لن تنظر بعين الارتياح لتحركات القوات المصرية في المناطق سالفة الذكر، وأنها تود إنهاء هذه المسائل بمباحثات مباشرة مع مصر. (٤٢) وقد أجاب الباشا إجابة مراوغة لأنه كان لايود في ذلك الوقت التصادم مع الامبراطورية البريطانية، وأوضح أنه لم يفكر مطلقا في إرسال تلك الحملات، أو تحقيق هذه المشروعات، وأنه لايفكر في التوسع خارج البحر الأحمر. (٤٣)

إلا أن محمد علي مضى من ناحية أخرى يبني تلك الدولة العربية المتحدة المترامية الأطراف، وامتد بنفوذه إلى جزيرة كماران في البحر الأحمر، حتى أن الحاكم البريطاني في بومباي طلب موافقة الباشا على أن يبني في تلك الجزيرة «المعروفة بأنها من حظها أن تكون تابعة لحكومة سمو الوالي المعظمة مخزنا للفحم لخدمة السفن البريطانية المارة في البحر الأحمر، وأن الحقوق المصرية في هذه الجزيرة معترف بها تماما».

وفي بداية عام ١٨٣٧ قام الكابتن البريطاني جيمس ماكنزي James Mackenzie من جيش الهند بالسفر عبر الجزيرة العربية ومصر، وعند عودته قدم تقريرا يوضح الانتصارات المصرية على سواحل البحر الأحمر سواء في الحجاز أو في اليمن على الساحل العربي، وكذلك في السودان على الساحل الأفريقي. وقد أوضح ماكنزي في هذا التقرير الهام، أن التوسع المصري في تلك الأنحاء قد أعطى لباشا مصر السيطرة على التجارة في الجزيرة العربية ككل، كما امتدح ماكنزي النظام الجمركي المصري في تلك الأنحاء. (٤٤)

ونستطيع أن نقول دون تحيز إن مصر أقامت حكما منظما في اليمن، أتاح استعدادا نسبيا لتقدم البلاد لم تنعم به من قبل، وذلك في الفترة القصيرة التي عاشها الحكم المصري هناك، كما اكتسبت مصر أصدقاء كثيرين من أبناء الشعب اليمني ظلوا على وفائهم لها حتى بعد الجلاء المصري عن اليمن، ولا أدل على ذلك من مطالبة أهل الحديدة بالانضمام إلى مصر بعد زوال الحكم العثماني عن اليمن في أعقاب الحرب العالمية الأولى. (٤٥)

كما أن عددا من الرسائل وردت إلى محمد علي من حضر موت وغيرها، طالب فيها أصحابها بالانضمام إلى الحكومة المصرية في اليمن، ومن أهم هذه الرسائل رسالة حضر موت الشهيرة، والتي طالب فيها أصحابها من محمد علي بإرسال موظفين وجنود لتنظيم أحوال حضرموت وإعادة الأمن إليها. (٤٦)

على أن السياسة البريطانية لم تقف مكتوفة الأيدي أمام تلك التهديدات الخطيرة التي شكلتها الدولة العربية المتحدة بالنسبة للمصالح البريطانية، فقد هال الإنجليز تقدم المصريين في الجزيرة العربية والسودان، ومساهمة هذه الدولة في التجارة بين الشرق الغرب. وكان اعتماد الإنجليز في البحر الأحمر على موانىء السودان واليمن، فلما أصبح السودان في يد محمد علي - كما سوف نتكلم بالتفصيل فيما بعد - زاد اعتمادهم على موانىء اليمن، فلما استحوذت مصر على اليمن، شعر الإنجليز بأن البحر الأحمر قد خرج من أيديهم (٤٧)، وأنه أصبح بحيرة مصرية عربية.

وهنا استعدت بريطانيا لتنفيذ أدوارها المرسومة في المنطقة، تلك السياسة التي كانت تقصد منها تحقيق هدفين:

الأول: إبعاد أي ظل للمنافسة المصرية في مداخل البحر الأحمر، **والثاني**: تأمين مواصلاتها مع الهند من أية أخطار قد تتهددها في المستقبل، وهكذا استولت بريطانيا على عدن، ذلك الميناء الخطير بين الشرق والغرب بحملتها العسكرية في يناير سنة ١٨٣٩.(٤٨)

ولا ريب أن الاحتلال البريطاني لعدن قد أثر تاثيرا كبيرا على الاقتصاد الخاص بالدولة العربية المتحدة، فمنذ أول لحظة للاحتلال البريطاني لعدن عمد المقيم البريطاني إلى محاولة تحويل التجارة اليمنية إلى عدن. (٤٩) ولاشك أن ذلك عاد بالسلب على اقتصاديات مصر بخاصة والدولة العربية بعامة، إذ لم يكن من السهل التكفل بنفقات القوات المصرية المرابطة باليمن والجزيرة العربية دون الحصول على إيرادات جمركية عالية، كما أن تحويل تجارة البن من الموانىء اليمنية إلى ميناء عدن، كان ضربة قاسية للتجارة في تلك الموانىء باعتباره المحصول الرئيسي في اليمن. (٥٠)

ولكن كيف تسنى لمصر أن تضم باقي أجزاء الدولة العربية في المشرق العربي أي السودان والشام؟

٢- مصر وضم السودان:

السودان جزء من الوطن العربي الكبير، وهو أيضا مرتبط بمصر برباط وثيق، والحدود الجغرافية لمصر والسودان تشمل وادي النيل من منبعه إلى مصبه، والروابط الوطنية والتاريخية واللغوية والدينية وصلات الدم والنسب والوجدان المشترك تجمع بين مصر والسودان. (٥١)

ويذكر المؤرخون بواعث وأسبابا عدة لمشروع محمد علي لضم السودان إلى مصر، فمنها اكتشاف مناجم الذهب التي تناقل الناس أنها موجودة في السودان وخاصة في سنار، ثم إمكان تجنيد السودانيين في الجيش المصري، وكذلك رغبة محمد علي في

التخلص من الفرق الباقية من عسكر الارناؤد وغيرهم من الجنود غير النظاميين ، وكذلك القضاء على البقية الباقية من المماليك الذين كانوا لاجئين في إقليم دنقلة، كما كان محمد علي يرمي كذلك إلى تحقيق وحدة وادى النيل، وتحقيق حلمه الكبير في إقامة الدولة العربية الكبرى في المشرق العربي. وقبل أن يأمر الباشا بالزحف، ذهب بنفسه إلى جنوب مصر في سبتمبر ١٨١٩، ووصل إلى ما وراء شلال أسوان ليرتاد تلك الجهات، ويرتب مواقع جنوده، ويرسم خطط تقدم القوات، ثم عاد إلى الجيزة في ١٥ نوفمبر ١٨١٩.

وتألفت الحملة المصرية عند بدء التقدم من ٤٠٠٠ مقاتل بقيادة إسماعيل بن محمد علي. ثم تم الإمداد بـ ١٤٠٠ مقاتل، فبلغ الجيش ٥٤٠٠ جندي.

كما أنفذ البابا قوة أخرى بقيادة صهره محمد بك الدفتردار لضم كردفان عددها ٤٠٠٠ مقاتل، فيكون مجموع قوات الحملة نحو عشرة آلاف مقاتل.

وقد تحرك إسماعيل في ٢٠ يوليو ١٨٢٠ إلى أسوان، ومن هناك إلى وادي حلفا على ظهور السفن. أما الفرسان فقد قطعوا المسافة في اثنى عشر يوما، ثم تم الزحف على دنقلة حيث استسلم المماليك، وهكذا تم فتح دنقلة. (٥٢)

واستمرت معارك الجيش المصري، ودخل المصريون بلاد الشايقية جنوبي دنقلة، كما انتصرت القوات المصرية في معركة كورتي في ٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠. (٥٣)

وانتقل الجيش المصري من نصر إلى نصر، فاحتل أم درمان، وفتح مملكة سنار، واحتل واد مدني وكردفان وفازوغلي. (٥٤)

وهكذا انضم السودان إلى مصر في كيان سياسي واحد.

وتأكيدا لروح الوحدة الوطنية المصرية السودانية، انخرط في الجيش المصري عدد كبير من السودانيين أضحى يزداد مع الزمن، وصار السودانيون ينتظمون في الجيش المصري كالمصريين. (٥٥)

لقد حقق الفتح المصري للسودان الوحدة القومية لمصر والسودان، ثم إن هذا الفتح نشر لواء الحضارة والعمران في أصقاع السودان، فقد أسس المصريون بالسودان حكومة منظمة، وأسسوا قواعد العمران هناك، ولم يعتبر المصريون السودان مستعمرة للاستغلال، بل نظروا إليه كجزء من الدولة العربية، فأسسوا المدن والعواصم كالخرطوم وكسلا وفافكه. وتم إنشاء المدارس وتوطيد الأمن، والاهتمام بالزراعة، وكذلك القيام بالمحاولات الجادة لاكتشاف منابع النيل. (٥٦)

٣- مصر وضم الشام:

قرر محمد علي أن يمضي قدما في بناء الدولة العربية الكبرى في المشرق العربي، وكان ضم الشام إلى مصر والجزيرة العربية والسودان يشكل أساسا قويا لهذه الدولة العربية، وكان لابد بالتالي من مواجهة الدولة العثمانية نفسها صاحبة السيادة على الشام.

وقد أعد الباشا حملة كبيرة مؤلفة من نحو ٣٠,٠٠٠ مقاتل اعتبارا من عام ١٨٣١، وقسمت قوات الحملة إلى قسمين: الأول تحت قيادة إبراهيم باشا والذي اتخذ طريقه إلى يافا بحرا، والثاني بقيادة ابراهيم باشا يكن الذي اتخذ الطريق البري عبر سيناء إلى يافا أيضا كي تتلاقى القوتان هناك. (٥٧)

وقد تقدم الجيش المصرى إلى أسوار عكا، وحاصرها ستة أشهر إلى أن سلمت للقوات المصرية. كما قام الجيش المصري بعد ذلك بضم دمشق في ١٦ يونيو ١٨٣٢، كما أنتصر على العثمانيين في حمص، وانتهى الأمر بفتح المصريين للمدينة.

وانتقل الجيش المصري من نصر إلى نصر، وذلك في معارك بيلان في ٣٠ يوليو ١٨٣٢ وقونيه في ٢١ ديسمبر ١٨٣٢. وفي فبراير ١٨٣٣ استولى الجيش المصري على كوتاهية ومغنيسيا، ومن ثم تدخلت فرنسا لحسم الخلاف بين مصر والسلطنة العثمانية، مما أدى إلى عقد صلح كوتاهية بين الطرفين في ٨ أبريل ١٨٣٣. وضم محمد علي بمقتضى هذا الصلح الجزيرة العربية والسودان والشام إلى مصر مكونا بذلك الدولة العربية الكبرى في المشرق العربي.

وظل إبراهيم باشا بالشام ينظم الأمور الإدارية والحربية ، ولكن أهل الشام ضاقوا ذرعا باحتكارات محمد علي، مما أدى إلى تبرمهم، وهكذا قامت بعض الحركات الانفصالية في سوريا بتحريض من إنجلترا ضد سياسة التوحد مع مصر.

إلا أنه في ٢٤ يونيو ١٨٣٩ وقعت معركة نزيب أونصيبين بين الجيش المصري والجيش العثماني في الشام، وتعد هذه المعركة أكبر انتصار حازه الجيش المصري في حروبه ضد الدولة العثمانية. وقد توفي السلطان العثماني محمود في أول يوليو ١٨٣٩ ، وتولى السلطان عبد المجيد عرش السلطنة، ورأى دعائم عرشه تنهار أمام انتصارات الجيش المصري، فبعث إلى محمد علي عارضا إجراء مفاوضات للاتفاق على حل يرضي الطرفين.

كما أن الأسطول العثماني لجأ إلى الاسكندرية وسلم نفسه لمصر. كان لهذا العمل أثره الكبير في تطور الحوادث، لأن تسليم الأسطول العثماني إلى مصر بعد انتصارها الكبير جعل كفتها هي الراجحة على الدولة العثمانية في البر والحبر. وبلغت الدولة العربية الكبرى أوج قوتها وعظمتها. (٥٨)

موقف الدول الأوروبية من الدولة العربية الكبرى:

أمام هذه الانتصارات التي حققها الجيش المصري، ظهر موقف الدول الأوروبية، فروسيا أرادت بسط حمايتها على الدولة العثمانية بحجة الدفاع عنها، كما مالت فرنسا إلى إقرار الحكم المصري في الجزيرة العربية والسودان والشام، أما إنجلترا فإنها جاهرت بعدائها لمصر.

وهكذا بدأت بريطانيا تكيد دسائسها كي تقوض أركان دولة الوحدة العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فأوعزت إلى النمسا وروسيا وفرنسا وبروسيا بأن يرسل سفراء هذه الدول مع السفير البريطاني في الأستانة مذكرة إلى الخليفة العثماني في ٢٧ يوليو ١٨٣٩ بأن لايبرم أمرا في شأن العلاقات العثمانية المصرية إلا بعد اطلاعهم واتفاقهم. (٥٩)

وقد يبدو غريبا أن تشترك فرنسا في هذه المذكرة، وهي التي كانت تنادي بتأييد مصر في تلك الأزمة، ولكن يبدو أن السياسات الفرنسية في تلك الفترة كانت غير مستقرة.

والواقع فإن مذكرة تلك الدول الأوروبية إلى الباب العالي العثماني كانت بمثابة إجهاض لنتائج معركة نزيب، وكانت من هذه الناحية انتصارا لوجهة النظر البريطانية على حساب الدولة العربية الكبرى.

وانقضت بضعة أشهر في تبادل الآراء بين الدول الأوروبية المعنية بقصد التوفيق بين وجهات نظرها، وكانت نتيجة هذه المفاوضات إبرام المعاهدة الشهيرة بمعاهدة لندن في ١٥ يوليو ١٨٤٠ بين إنجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا والدولة العثمانية. وللمعاهدة ملحق يتضمن الامتيازات التي تعهد السلطان العثماني بتخويلها لمحمد علي، ويعتبر هذا الملحق جزء من المعاهدة والتي نصت على أن تخول لمحمد علي وخلفاؤه حكم مصر الوراثي في مقابل تقويض أركان دولة الوحدة العربية ، أي انسحاب القوات المصرية من كل المناطق العربية الأخرى.

وواضح أن تقويض أركان الدولة العربية الكبرى في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان نتيجة للمؤامرات الأوروبية بعامة والإنجليزية بخاصة. [٦٠]

وعلى أية حال رفض محمد علي في بادىء الأمر شروط معاهدة لندن المجحفة ، واستعد للقتال، مما أدى إلى نشوب القتال بين مصر والدول الأوربية المتحالفة، واضطر الجيش المصري إلى إخلاء منطقة الشام، وكذلك الانسحاب من الجزيرة العربية، وإن ظل السودان مع مصر يكونان معا دولة وادي النيل ردحا من الزمن.[٦١]

إن تجربة الوحدة العربية في المشرق العربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ورغم أنها قامت على أساس استخدام القوة المسلحة، لهي تجربة جديرة بالدراسة والتحليل، لأن الدولة العربية الكبرى التي قامت استطاعت القفز بالمناطق العربية المكونة للدولة خطوات واسعة في طريق التقدم الحضاري، وتم تنظيم عمليات حيوية كالأمن والتعليم، والتقدم الصناعي والزراعي. ولكن المؤامرات البريطانية كانت بالمرصاد لهذا التوحد العربي، مما أدى إلى القضاء مبكرا على دولة الوحدة، وذلك رعاية للمصالح البريطانية في البحر الأحمر والجزيرة العربية والخليج العربي والمحيط الهندي والبحر المتوسط.

رابعاً: وحدة الكفاح الجزائري المغربي ضد الاحتلال الفرنسي (١٨٣٢-١٨٤٧)

إن الكلام عن تجارب وإنجازات الوحدة العربية، يقودنا إلى الكثير من التركيز على هذه التجارب في المشرق العربي، ولكن حتى لانميل كل الميل، ومن أجل أن تكون الدراسة متوازنة بين المشرق والمغرب العربيين يجب تسليط الأضواء على حركات الوحدة في المغرب العربي، وقد وضحت فكرة القومية العربية تماما في التعاون المغربي الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي في الربع الثاني من النصف الأول من القرن التاسع عشر. لقد قدم المغرب معونات ضخمة للكفاح الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وخاصة إبان ثورة الأمير عبد القادر الجزائرى (١٨٣٢-١٨٤٧).

والواقع أنه منذ سقوط الجزائر، والمغرب مهتم بما يحدث على حدوده الشرقية، حتى إن المغرب أرسل حملة إلى مدينة تلمسان الجزائرية في أكتوبر ١٨٣٠. (٦٢) تحت قيادة القائد المغربي أبي الحسن علي الذي جمع قبائل تلمسان وقاد المقاومة ضد الفرنسيين هناك. وجاء وفد من سكان تلمسان إلى مكناس يعرضون بيعتهم للسلطان المغربي سلطانا عليهم. ولكن السلطان كان مترددا في قبول هذه البيعة على اعتبار أن الجزائريين قد بايعوا السلطان العثماني. ولكن السلطان المغربي عندما ألح عليه أهل تلمسان في قبول البيعة، وعندما بينوا له حقيقة الموقف في بلدهم، قبل هذه البيعة، وكتب إلى عامله بوجدة يستوصيه بأهل تلمسان خيرا. (٦٣)

وفي تلمسان ، جاءت الوفود الجزائرية لتقديم الطاعة إلى خليفة السلطان المغربى عبد الرحمن بن هشام وهو ابن عمه علي بن سليمان. (٦٤) ولكن طائفة الكرغلية التركية أثارت الاضطرابات في المنطقة، مما أدى إلى عودة القوة المغربية من تلمسان إلى المغرب، وهكذا عاش أهل تلمسان حالة من الفوضى.

وهكذا فشلت محاولة انضمام تلمسان إلى المغرب، وبقي أهل تلمسان يعانون من الفتن حتى ظهر على المسرح عبد القادر الجزائري.

ولكن ماهي المساندة المغربية للمقاومة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر؟

بدأت علاقات عبد القادر بالمغرب ، بأن بعث كتابا لعلماء فاس يستشيرهم في رأي الشرع في أمور وقعت بينه وبين بعض القبائل الجزائرية المتعاونة مع الاستعمار الفرنسي، وكذلك بالنسبة للقبائل التي لم ترد معاونة الأمير في عملياته العسكرية والممتنعة عن دفع الزكاة، كما أرسل عبد القادر في سنة ١٨٣٦ وفدا إلى السلطان المغربي برئاسة ابن عبد الله السقاط، الذي حمل كتابا خاصا إلى السلطان (٦٥) وقد أكرم السلطان وفادة الأمير، وحول الموضوعات الخاصة باستفسارات الأمير في أمور الشرع إلى شيخ الإسلام بالقرويين، وأمره بالإجابة على هذه الاستفسارات . كما أمر السلطان بإحضار «سبع كسوات فاخرة، وسبع أفراس من عتاق الخيل بسروجها، وأربعة مدافع صغار.. وأن يعطى - من الخزينة - عشرة آلاف مثقال إلى الحاج الطالب وكيل الأمير بفاس ليشتري له بها من الأدوات الحربية» (٦٦) كما بعث السلطان مع هذه الأشياء كتابا إلى الأمير يحثه فيه على استئناف الجهاد مع العدو الفرنسي، كما كان جواب علماء فاس على استفسارات الأمير في الأمور الشرعية مفصلا وشافيا لما طلبه. (٦٧)

والواقع أن راية الإسلام كانت تظلل العلاقة بين السلطان المغربي والأمير الجزائري، وخاصة عندما اشتد الأمير في قتال الفرنسيين «... ولما اتصل بالسلطان المولى عبد الرحمن (رحمه الله) وذكر له ما عليه الحاج عبد القادر من جهاد عدو الدين، وحماية بيضة المسلمين، أعجبه حاله وحسنت منزلته عنده، لأنه رأى أنه قد قام بنصرة الإسلام على حين لا ناصر له، فصار السلطان رحمه الله يمده بالخيل والسلاح المرة بعد المرة على يد الأمين الحاج الطالب ابن جلون الفاسي وغيره، وطالت الحرب بينه وبين الفرنسيين واستولى الفرنسيس في بعض الكرات على تلمسان، وضايقه الحاج عبد القادر فيها حتى أخرجه منها، ثم استردها الفرنسيس بعد معارك شديدة ومواقف صعبة إلا أن ضرر الحاج عبد القادر للفرنسيين كان مقصورا على قتل النفوس واستلاب الأموال وأما الفرنسيس فكان ضرره بالمسلمين عائدا على تملك بلادهم وتنقصها من أطرافها». (٦٨)

وكان عبد القادر يعتبر نفسه بمثابة خليفة لسلطان مراكش بالجزائر، فكان الأمير يخاطب السلطان بالوالد، وكانت رسائله لاتنقطع عنه« وخطب به، وبعث له بالبيعة، وكان يقول إنما أنا نائب عن مولانا عبد الرحمان بن هشام» كما كان السلطان يخاطب عبد القادر ناعتا إياه بالولد البار، فقد جاء في رسالة من السلطان للأمير«... محل الولد البار الأحظى المجاهد الأرضي السيد عبد القادر بن محي الدين، أمدك الله بالعون واليقين».(٦٩)

وقد أدت المعاونات المغربية للجزائر في ثورتها المقدسة ضد الاحتلال إلى قيام الفرنسيين بالتحرش بالقوات المغربية عند الحدود بين الطرفين، وهاجمت القوات الفرنسية مدينة وجدة المغربية، وعندما احتج السلطان عبد الرحمن على هذا العدوان الفرنسي على الأراضي المغربية، أجابته الحكومة الفرنسية بأن العلاقات بينها وبين المغرب قد تدهورت منذ امداد السلطان للأمير بالخيل والسلاح والمال، هذا بالإضافة إلى محاربة قبائل بني يزناسن المغربية إلى جانب قوات الأمير ضد الفرنسيين. (٧٠)

وازداد تأزم الموقف عندما أنشأت فرنسا بعض الحصون في منطقة الحدود مع المغرب، فأقاموا حصنا في للامغنية وعلى التراب المغربي نفسه في يناير ١٨٤٤.(٧١)

أما السلطان المغربي، فإنه أعد قواته لمواجهة هذا العدوان الفرنسي على أراضيه ونتيجة لمعاوناته للثائر عبد القادر الجزائري، وجعل ابن عمه المأمون بن الشريف قائدا لهذه القوات، ووجهها ناحية وجدة، وهكذا بدأت المناوشات بين المغاربة والفرنسيين. وأرسلت فرنسا إلى السلطان تطلب إبعاد عبد القادر من أراضيه.. ورغم تطور الأمور إلى ما يشبه الإنذار الفرنسي للمغرب، فإن السلطان أبى الخضوع للمطالب الفرنسية. وأدى استمرار نزاع الحدود بين الفرنسيين والمغاربة إلى تقدم القوات الفرنسية إلى مدينة وجدة المغربية، مما حدا بالسلطان عبد الرحمن بن هشام إلى إعلان الاستنفار العام لخوض الحرب ضد الفرنسيين، واتحدث جيوشه مع بقايا جيش عبد القادر (٧٢)، بعد أن ضعفت قواه طول فترة المواجهة مع القوات الفرنسية المتطورة.

والواقع أن الفارق في التسليح كان كبيرا بين القوتين، واعتمد الفرنسيون على المدفعية الثقيلة في حسم الموقف لصالحهم، فكانت هزيمة ايسلي هزيمة ثقيلة حقا[٧٣] وتعد هذه الهزيمة من أعظم النكبات التي حلت بالمغرب وذهبت بهيبته في سبيل الدفاع عن الشعب الجزائري ، وقد وقعت هذه المعركة المشؤومة يوم الثلاثاء ١٣ أغسطس ١٨٤٤[٧٤] وإثر هذه الهزيمة، وقعت بين المغرب وفرنسا معاهدة صلح بطنجة في ١٠ سبتمبر ١٨٤٤، والتي تعهد فيها المغرب بسحب قواته من الحدود الشرقية. كما أسفرت هذه الأحداث عن تدهور الوضع الداخلي في المغرب، وتعدد الأزمات به [٧٥] وهكذا كانت المصيبة كبيرة، وكانت تضحيات المغرب جسيمة، فقد نكب المغرب وامتدت اثار هزيمته على المقاومة الجزائرية وبطلها عبد القادر. [٧٦]

وكانت معاهدة طنجة هي البداية بالنسبة لوضع العلاقات الفرنسية المغربية على أسس جديدة، إذ تم عقد معاهدة للامغنية بعد ذلك في عام ١٨٤٥ والتي أعطت لفرنسا حقوقا جديدة، فقد وضع خط للحدود ضم بعض أراضي المغرب لفرنسا في الجزائر، بل إن بعض القبائل تم تقسيمها إلى قسمين قسم تابع لفرنسا وقسم تابع للمغرب [٧٧] ومن غريب ماورد في الفصل الخامس من تلك المعاهدة أن فرنسا اعترفت بمغربية بعض تلك القبائل كقبيلة بنى منقوش التحانة، ولكنها أصرت على أن تكون الأرض التي يسكنون بها من حساب الجزائر الفرنسية - حينذاك - أما الحكومة المغربية فلم تعترف بشيء من ذلك، واعتبرت الأرض التي تسكنها تلك القبائل ارضا مغربية توارثها الأبناء عن الأجداد، كما تدل على ذلك رسوم ملكيتها التي كانت تلك القبائل تحتفظ بها إلى ذلك الحين. [٧٨]

وحاول المغرب استرداد أبنائه الواقعين تحت الأسر، وهناك العديد من الوثائق أو المراسلات المغربية الموجهة من السلطان إلى عامل العرائش [٧٩] وكذلك رسائل من الوزير محمد بن إدريس إلى عامل العرائش بشأن اتفاقية الحدود. [٨٠]

وفي ظل هذه الظروف العصيبة.. ظروف هزيمة المغرب في معركة ايسلي، وما كان من فرض الشروط الفرنسية على المغرب بالتهديد وبالقوة، فإن سلطان المغرب عبد الرحمن بن هشام لم يتوقف عن مساعدة أبناء الشعب الجزائري الشقيق، فهو يمنح المهاجرين الجزائريين اللاجئين بالمغرب الكثير من الهبات والعطايا. [٨١]

والواقع أنه بصرف النظر عن النتائج التي تمخضت عنها معركة إيسلي، فإن الحقائق المستخلصة توضح أن المغرب سلطانا وحكومة وشعبا ساند المقاومة الجزائرية بكافة الإمكانيات المتاحة، وأنه وقف وقفة شجاعة ضد قوى استعمارية عاتية ومتطورة، وقدم المغرب دماء أبنائه وكل إمكانياته من أجل نصرة الجزائر في مقاومتها المشروعة ضد القوى الفرنسية كما ان المغرب تحمل بشرف نتائج هذه المعاونات للشعب الجزائري الشقيق، تحمل اقتطاع أجزاء من أراضيه لصالح فرنسا في الجزائر، وتحمل الهزيمة بكل ما تحمله هذه الكلمة من أسى في النفوس، إيمانا منه بمبدأ ثابت، وهو معاونة الإخوة العرب المسلمين في الجزائر. (٨٢)

خامساً: الحركة القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

١- جمعية بيروت السرية:

بدأت إرهاصات العمل القومي العربي في بيروت، على شكل جمعية بيروت السرية عام ١٨٧٥ ولكن سرعان ما انتشرت فروع الجمعية في دمشق وحلب وطرابلس وصيدا. وبعد فترة من العمل السري، بدأت الجمعية في لصق المنشورات على الحيطان ضد الحكم العثماني. ولقد فضحت هذه المنشورات مساوىء الحكم القائم، ودعت العرب إلى القيام بتوحيد جهودهم لتحطيم الظلم والاستبداد. كما رمت تلك المنشورات إلى توحيد العرب لمواجهة عمليات الاستعمار الأوروبي، وذكرتهم بمجدهم السالف، وبضرورة العمل على استعادته مستندين في ذلك إلى قوة السيف. وفي أحد هذه المنشورات التي يرجع تاريخها إلى عام ١٨٨٠ فضح الثوار سياسة الحكومة العثمانية في القضاء على اللغة العربية، ووضعوا برنامجا خاصا ينص على العمل على استقلال الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) عن السلطنة العثمانية، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية، وإلغاء الرقابة وكل ما يقيد حرية الفكر والنشر.

كانت هذه الحركة إذن حركة استقلالية تسعى إلى توحيد الشام واستقلاله. ويعتبر المجهود الثوري لجمعية بيروت السرية أول موجة من الموجات التي ستعم العالم العربي، وإذا كانت الجمعية لم تنجح في تحقيق كل أهدافها، فإنها عملت على زيادة الوعي القومي العربي، واستغلت حركة الشعب العربي في الشام في التأكيد على حقيقة القومية العربية المشتركة.

٢- عبد الرحمن الكواكبي:

لايمكننا التحدث عن القومية العربية في هذه الفترة دون أن نشير إلى عبد الرحمن الكواكبي ، والمجهودات الثورية التي قام بها في هذا السبيل. وقد ولد الكواكبي في حلب سنة ١٨٤٩، وتعلم في المدارس الإسلامية في هذه المدينة، ولكن مقالاته التي

كانت تفيض بالفكر القومي العربي أقضت مضاجع الولاة الأتراك، مما أدى إلى القبض عليه، وأخيرا اضطر إلى اللجوء إلى مصر بمجرد الإفراج عنه. وقد ألم الكواكبي ببلاد الصومال وزنجبار واليمن والحجاز، ثم عاد إلى القاهرة وتوفي سنة ١٩٠٣.

وكان الكواكبي يؤمن بمستقبل الأمة العربية، وكان يكره التعصب والظلم والاستبداد. وشرح في كتابه «أم القرى» ما يتمناه للإسلام من عز ومجد. أما كتابه الثاني «طبائع الاستبداد»، فهو عبارة عن مجموعة من المقالات كان قد نشرها في الصحف المصرية عن الاستبداد ثم جمعها ونشرها.

ولقد فرق الكواكبي بين القومية العربية، وحركة الجامعة الإسلامية التي نادى بها السيد جمال الدين الأفغاني، وأوضح أن هناك قومية خاصة بالشعوب العربية، وإن كان قد وافق أيضا على آراء السيد الأفغاني في التجمع الإسلامي.

٣- نشاط الجمعيات العربية:

لابد هنا أن نوضح أن الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢، جعل بعض الزعماء السياسيين المصريين يلتصقون بدولة الخلافة العثمانية في مواجهتهم للاحتلال البريطاني، بعكس الفكر القومي العربي ضد الدولة العثمانية والذي استتب في الشام والعراق والجزيرة العربية، وهكذا فإن النشاط الوطني السياسي ظل مختلفا بين مصر وبقية العالم العربي الشرقي نتيجة لاختلاف العدو الذي كان يتمثل في الإنجليز في مصر والاتراك في بقية مناطق العالم العربي الشرقي. وهكذا استقرت الحركة العربية القومية بشكل واضح في الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية مؤقتا. (٨٣)

والواقع فإن حركة تركيا الفتاة والتي ظهرت في الأستانة في العقد الأول من القرن العشرين، كانت تسير في طريق تعارض تام مع حركة الفكر القومي العربي، إذ كانت الأولى حركة تركية رمت إلى تتريك الولايات العربية الخاضعة لتركيا، بينما حاولت حركة الفكر القومي العربي التخلص من الحكم التركي الثقيل الوطأة. ثم اتبعت جمعية الاتحاد والترقي في تركيا سياسة المركزية في الدولة التركية، وهي سياسة

كان يصعب تطبيقها دون الإجحاف بمصالح الشعوب العربية الخاضعة للحكم التركي آنذاك. وهذا ما دفع الزعماء العرب في الشام إلى إنشاء منظمات وجمعيات سرية عربية، وأخذت هذه الجمعيات في نشر آرائها المبنية على الفكر العربي القومي.

أ - جمعية المنتدى العربي:

كانت أولى الجمعيات العلنية هي جمعية المنتدى الأدبي [٨٤] التي ألفها عدد من رجال الأدب والفكر العرب في الأستانة سنة ١٩٠٩. وكان للمنتدى مكتبة ودار ضيافة، وكان يجتمع في هذه الدار العرب المقيمون في العاصمة التركية. ولقد وافقت جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة في تركيا على نشاط جمعية المنتدى الأدبي العربية نظرا لأنها لم تكن من الوجهة الرسمية جمعية سياسية، ولكنها في واقع الأمر كانت جمعية سياسية بمعنى الكلمة. فقد كانت جمعية المنتدى الأدبي مكانا للقاء بين الأعضاء ولنشر الآراء.

وقد ازدادت أهمية تأثيرات المنتدى بعد افتتاح فروع للجمعية في عدد كبير من المدن في الشام والعراق. وكان النقاش بين الأعضاء يتركز في أهداف وسبل تحقيق الوحدة العربية.

ب- حزب اللامركزية الإدارية العثماني:

نشأ في القاهرة تجمع عربي باسم حزب اللامركزية الإدارية العثماني سنة ١٩١٢، وكانت مطالب هذا التشكيل هي السعي لدى تركيا للسير على طريق اللامركزية في حكم الولايات العربية الخاضعة لها. وكان يرأس الحزب أو هذه الجمعية العربية مجلس إدارة مكون من عشرين عضوا، كما كانت هناك هيئة تنفيذية عليا تتكون من ستة أعضاء. وقد أمكن للحزب إنشاء فروع له في معظم المدن في الشام والعراق، كما حافظ على صلات وثيقة مع المنتدى العربي في الأستانة.

أما سبب اختيار مصر لتكون مركزا لنشاط الحزب، فكان يستند إلى أن مصر ولو أنها كانت من الوجهة الرسمية خاضعة للدولة العثمانية في ذلك الوقت، إلا أنها كانت واقعة تحت الاحتلال البريطاني، ولا تستطيع الدولة العثمانية أن تطال العرب

المقيمين فيها. وقد بذل أعضاء الحزب أو الجمعية الكثير من أجل بلورة أفكار القومية العربية، بدء بطلب سياسة اللامركزية في الحكم، ووصولا إلى المطالبة باستقلال الدول العربية عن تركيا، ثم تحقيق اتحاد هذه الدول العربية المستقلة.

جـ - الجمعية القحطانية:

تكونت هذه الجمعية السرية قرب نهاية عام ١٩٠٩ ، وكان زعماؤها من القادة الشجعان الذين كانوا يسعون إلى هدف أكثر وضوحا وأكثر خطرا على حياتهم، وهو تحويل الدولة العثمانية إلى دولة ثنائية عربية - تركية ، أي إقامة دولة عربية موحدة لها برلمانها وحكومتها المحلية ولها لغتها العربية الرسمية كجزء متميز في الدولة العربية التركية، ويجمعها اتحاد مع تركيا، كما كان الحال في إمبراطورية النمسا والمجر.

وكانت هذه الخطة تتطلب العمل سرا على تحقيقها، ورأس هذه الحركة الفريق عزيز علي المصري، الذي كان ضابطا نشطا في الجيش التركي، واهتم بالسياسة مثل اهتمامه بالأمور العسكرية. ولم تقبل الجمعية القحطانية بين صفوفها إلا من لا يتبادر أي شك في عروبته، ومن يمكنه القيام بأعمال سرية لها خطورتها. وضمت هذه الجمعية عددا كبيرا من الضباط العرب المنخرطين في الجيش التركي وبعض أعضاء جمعية المنتدى الأدبي، وتمكنت من إنشاء خمسة فروع لها، علاوة على مركزها الرئيسي في الأستانة.

د - جمعية الفتاة:

تكونت جمعية الفتاة السرية في باريس سنة ١٩١١، ولعبت دورا كبيرا في تاريخ القومية العربية، وكونها سبعة من الشبان الذين كانوا يدرسون في العاصمة الفرنسية في ذلك الوقت، وحاولت الجمعية العمل في سبيل تحقيق استقلال الدول العربية، وتحريرها من نير الحكم التركي والأجنبي، وكانت في هذا الاتجاه أكثر تقدما من الجمعيات الأخرى، والتي كانت في أغلبها تسعى إلى تحقيق الحكم الذاتي للبلاد العربية داخل نطاق الدولة العثمانية.

وامتازت هذه الجمعية أيضا بدقة التنظيم وتحديد المطالب، ولم تقبل انضمام أي عضو إليها إلا بعد فترة طويلة من الاختبار والفحص، وبعد تزكية عضو آخر عامل بها. وظلت هذه الجمعية في باريس لمدة عامين، ثم انتقلت إلى بيروت، وظلت تعمل على تحقيق أهدافها طوال فترة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨) رغم وسائل الضغط التي استخدمتها السلطات التركية ضد عدد كبير من أعضائها.

هـ - لجنة الإصلاح:

وقد أنشأ هذه اللجنة أو الجمعية ٨٦ من الأعضاء العرب في بيروت في عام ١٩١٢. وقد وضع هؤلاء مشروعا للحصول على الاستقلال الذاتي للبلاد العربية داخل نطاق الدولة العثمانية. ونشرت لجنة الإصلاح برنامجها في منتصف فبراير سنة ١٩١٣، وقد لقي هذا البرناج تأييدا شعبيا كبيرا في كل أقاليم الشام والعراق، وعقدت الاجتماعات في دمشق وحلب وعكا ونابلس وبغداد والبصرة. وبدأ سيل برقيات تأييد هذا البرنامج يصل إلى الأستانة ، وكانت السلطة هناك في أيدى جمعية الاتحاد والترقي التي عملت على تطبيق سياسة التتريك والمركزية في أنحاء الدولة، والتي تاثرت بسياسة الجامعة الطورانية التي تنادي بسيادة الجنس التركي على بقية الأجناس الساكنة في الدولة العثمانية، مما أدى بالسلطات التركية في الشام والعراق إلى القبض على عدد كبير من أعضاء لجنة الإصلاح، وسادت المظاهرات عددا كبيرا من المدن في الشام.

و - المؤتمر العربي الأول :

انتقل مركز النشاط في الفكر القومي العربي بعد ذلك إلى باريس، حيث حاول رجال جمعية «الفتاة» الشبان خدمة قضية القومية العربية. بالإعلان عنها في مناخ محايد وملائم. وعزموا على عقد مؤتمر عربي في العاصمة الفرنسية، بعد أن كانت قد راودتهم فكرة عقدة في سويسرا، وتوصلوا إلى أن رفض المطالب العربية التحررية لن يؤدي بهذه الأقاليم إلا إلى الفوضى، وكذلك لتعرضها لخطر الغزو الأجنبى. وأرسل زعماء هذه الحركة دعوة إلى حزب اللامركزية في القاهرة يطلبون منه المشاركة في

هذا المؤتمر مع الجمعيات المنضمة إليه. وقد وافق حزب اللامركزية على هذه الدعوة مثله في ذلك مثل لجنة الإصلاح في بيروت.

وبدأ المؤتمر أعماله في ١٨ يونيو ١٩١٣، وحضره أربعة وعشرون ممثلا للجمعيات العربية المختلفة، أغلبهم من الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) كما كان من بينهم عضوان من العراق، وثلاثة من العرب المقيمين في الولايات المتحدة الأمريكية.

وعقد المؤتمر أربع جلسات في ستة أيام، واتخذ الأعضاء قرارات أمام مائتين من المدعوين، ونشرت هذه القرارات باللغتين العربية والفرنسية.

وأصر المؤتمر على الحصول على الحقوق العربية كاملة. إلا أنه من ناحية أخرى قامت جمعية الاتحاد والترقي في ذلك الوقت والقابضة على زمام السلطة في تركيا بحملة في الصحف ضد هذا المؤتمر العربي، وكانت الجمعية التركية قد حاولت التدخل لدى السلطات الفرنسية حتى تأمر الأخيرة بمنع انعقاد المؤتمر العربي في باريس، ولكنها فشلت في ذلك. وأخيرا اضطرت جمعية الاتحاد والترقي التركية إلى إرسال سكرتيرها إلى باريس للاتصال بممثلي الجمعيات العربية في مؤتمر باريس، ودارت بالفعل محادثات بين الطرفين، وانتهى الأمر إلى اتفاق على بعض المبادىء تصلح أساسا للمفاوضة مع جمعية الإصلاح والترقي، ثم سافر ثلاثة من أعضاء المؤتمر العربي إلى الأستانة لبدء المفاوضات الرسمية هناك.

وكان اتفاق باريس عبارة عن نصر كبير للقومية العربية، إذ تمت الموافقة على استخدام اللغة العربية كلغة رسمية في الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية في كافة المراحل التعليمية، وعلى إسناد بعض المناصب الكبرى للعرب، وتعيين ثلاثة وزراء عرب في الحكومة التركية. ولكن جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة في استانبول سرعان ما نكصت على وعودها ، مما أصاب العرب بخيبة أمل كبيرة، وأدى بهم إلى أن يبتعدوا في حركتهم القومية عن أسلوب التحرر خطوة خطوة من السيادة التركية.

ز - جمعية العهد:

عمل الفريق عزيز علي المصري في بداية سنة ١٩١٤ على تكوين جمعية «العهد». وقصر العضوية في هذه الجمعية على الضباط، وإن كان برنامجها يشبه برنامج

الجمعية القحطانية. وظهرت أهمية العنصر العراقي في جمعية العهد نتيجة لكثرة الضباط العراقيين في الجيش التركي في ذلك الوقت، وكان هذا سببا في إنشاء فروع للجمعية في بغداد والموصل، وأصبحت جمعية العهد بالنسبة للعسكريين ما كانت عليه جمعية العربية الفتاة بالنسبة للمدنيين. وبالرغم من أن كلا من الجمعيتين لم تكن تعرف بوجود الأخرى في بادىء الأمر، إلا أن نشاط كل منهما كان يكمل نشاط الأخرى، حتى اتصلا ببعضهما في دمشق سنة ١٩١٥، ولعبا دورا كبيرا في قيام الثورة العربية بزعامة شريف مكة الشريف حسين، والتي سوف نتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد.

تلك كانت الحالة التي بلغتها حركة الفكر القومي العربي في نشأتها وتطورها وتجاربها مع السلطات التركية عندما تلبد الجو الدولي باندلاع الحرب العالمية الأولى، وسوف يكون لهذه الحرب آثارها العميقة في الاتجاهات الجديدة التي سيتخذها العرب حيال تركيا أثناء هذه الحرب، خاصة أن بعض الدول الكبرى المعادية للأتراك وللعرب على حد سواء ستحاول استغلال هذه الخلافات العربية التركية، وشحن الأماني العربية بالكثير من الآمال، في الوقت الذي توقفت فيه تركيا عن الاستجابة للطموحات العربية في الحرية والاستقلال. [٨٥]

سادساً: الثورة العربية بزعامة الشريف حسين

شهدت السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر تقدم الوعي الإنساني وغلبته، وتقرير حقوق الإنسان وحرياته، كما تقدمت الفكرة الدولية، وظهرت حاجة المجتمع الدولى إلى الترابط والتعاون والتآخي فكانت المؤتمرات لتبادل المعونات ، ودعم أواصر الوحدة العالمية ومنع الحروب، وتحقيق الرفاهية للإنسانية... وووسط تيار هذه النزعة العالمية للتعاون، بقيت النزعة القومية سائدة، ومصلحة الدولة تقضي على كل ما عداها من مصالح مشتركة. وكان للثورة الصناعية أثرها في احتدام التنافس الاستعماري على مواطن المواد الخام، ومصادر الإنتاج، وأسواق الاستهلاك، وهكذا نشطت القوى الاستعمارية، وكانت مثار الأزمات السياسية والحروب الدامية.

وقد حفلت السنوات القلائل التي سبقت الحرب العالمية الأولى بالأزمات السياسية التي اتخذت طابعا عنيفا كاد يلهب شرارة الحرب، ويدفع العالم إلى الكارثة المنتظرة، لأن الاتجاهات الدولية، وتشعب المصالح والأهداف، وحمى التسلح التي شلمت كل الدول الكبرى، وكانت تؤذن بما ستكون عليه الحرب القادمة من شمول واتساع وفتك مروع، وانقسمت أوروبا إلى حلفين يتأهبان للساعة الرهيبة باعداد الاسلحة المتطورة، وأخفقت كل دعوة للسلام . [٨٦]

وكان أقطاب النزاع في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) دول الوسط وكانت تضم المانيا والنمسا وتركيا، ودول الوفاق التي كانت تضم بريطانيا وفرنسا والروسيا ثم الولايات المتحدة الأمريكية التي دخلت الحرب متأخرة سنة ١٩١٧. وعلى أية حال، فبعد انضمام تركيا إلى ألمانيا، انتقمت بريطانيا لنفسها بأن ضمت قبرص، وأعلنت الحماية على مصر. [٨٧]

وهكذا كان دخول تركيا الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا أكبر مساعد على تدخل الدول الأوروبية في المسألة العربية. فبدأت مجموعة الوفاق – وخاصة بريطانيا – تهتم كثيرا بموقف العرب من هذه الحرب.

وكانت تركيا بسيطرتها على الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) والعراق تهدد انجلترا في منطقتين هامتين هما قناة السويس ومنطقة الخليج العربي والتي تقع آبار بترول الشركة الإنجليزية الفارسية بالقرب منها. كما أن سيطرة الأتراك على سواحل البحر الأحمر، كانت تسمح لهم بالاتصال بمصر والسودان، والتوغل في القارة الأفريقية، وإيجاد المصاعب أمام الدول الاستعمارية. هذا بالإضافة إلى أن تركيا كانت تحتفظ بفرقتين عسكريتين في اليمن، وكان يمكنها بهما أن تهدد قاعدة عدن البريطانية حينذاك تهديدا مباشرا.

أما من الناحية السياسية والنفسية، فإن إعلان السلطان العثماني للجهاد الإسلامي ضد الإنجليز والفرنسيين، وموافقة الشريف حسين شريف مكة على فكرة الجهاد الإسلامي كان يهدد بتحويل الحجاز إلى مركز ثورة ودعوة إسلامية كبرى تعمل على إثارة الشعوب العربية والشعوب الإسلامية، والتي كانت تخضع لاستعمار دولتي الوفاق (بريطانيا وفرنسا) في الهند ووسط آسيا وشمال أفريقيا وغربها.

وهكذا يمكننا القول بأن المنطقة التي كانت ستتأثر بإعلان الخليفة العثماني الجهاد الإسلامي هي عبارة عن دائرتين الواحدة داخل الأخرى: الأولى هي البلاد العربية، والثانية أوسع منها، وتضم العالم الإسلامي غير العربي... وهذا هو السبب في اتجاه الإنجليز إلى محاولة ضرب تركيا في أقاليمها العربية، بفصل العرب عن الأتراك في منطقة الشرق الأوسط. (٨٨)

لقد فكرت الحكومة البريطانية في ضرب تركيا في المنطقة العربية التي تحيط بقناة السويس، وكانت أحسن نقطة للضرب - من وجهة النظر البريطانية - هي مكة... وهكذا فضلت إنجلترا الاعتماد على الشريف حسين شريف مكة. وكان الشريف حسين يتمتع بمركز ممتاز من ناحية المساعدة التي قد تقوم بها بلاده، علاوة على قيمة تدخله السياسي. وكان يحتل منطقة وسط الخطوط التركية في شبه الجزيرة العربية. ولم يكن في استطاعة إمام اليمن القيام بشيء أكثر من شل حركة القوات العثمانية في مناطقها. أما عبد العزيز آل سعود فكان - في ذلك الوقت - بعيدا عن مراكز الأتراك وخطوطهم. ولكن الشريف حسين كان يستطيع التأثير على القوات

العثمانية في الجزيرة العربية، ويقطع خطوط مواصلاتها مع الشمال، ويفصل عنها حاميات العسير واليمن. كما كان للشريف حسين مكانة دينية في كل العالم الإسلامي حينذاك لأنه شريف، وحامي حمى الحرمين الشريفين، فكان في استطاعته أن يؤثر على الشعوب الإسلامية العربية وغير العربية، وبالتالي كانت معارضته لدعوة الخليفة العثماني في إعلان الجهاد الإسلامي ضد بريطانيا وفرنسا، مما يضعف قوة نداء السلطان العثماني نفسه... وهكذا تبنت إنجلترا سياسة معاونة الشريف حسين في دعوته للثورة العربية ضد الأتراك حلفاء الألمان في الحرب العالمية الأولى. (٨٩)

وقد اتصلت جمعية الفتاة (العربية) بالشريف حسين في الوقت الذي كان يتشاور فيه مع الزعماء العرب لمعرفة موقفهم من الدولة العثمانية، وأبلغه ممثل الجمعية عن عزم الوطنيين والضباط العرب في الجيش التركي - في كل من الشام والعراق - على القيام بثورة لتحقيق الاستقلال عن تركيا.

كما جاء فيصل بن الحسين إلى سوريا قرب نهاية مارس ١٩١٥، وبدأ في الاتصال بالوطنيين العرب من جمعية الفتاة، الذين شرحوا له معرفتهم بأن دخول تركيا الحرب إلى جانب الألمان وضد الإنجليز يهدد الولايات العربية في الدولة العثمانية، مما تطلب منهم العمل على تحرير بلادهم.

ثم بدأ فيصل بن الحسين اتصالاته برجال جمعية العهد - والتي كان أعضاؤها من الضباط العرب في الجيش التركي - ووجد هناك نفس آراء جمعية الفتاة من رغبة في الانفصال عن تركيا، لايكبحها إلا الخوف من أطماع الإنجليز والفرنسيين.

اتفق إذن كل من أعضاء جمعيتي الفتاة والعهد على ما سبق، دون أن يعلموا بمراسلات الإنجليز مع الشريف حسين، والتي يمكن أن نوجزها فيما جاء من تعهد بريطاني على لسان كتشنر ومكماهون بأن بريطانيا تضمن إذا ما قام الشريف حسين بالثورة ضد الأتراك في الأقاليم العربية العثمانية، أن تعترف به كخليفة على المسلمين، كما تضمن بريطانيا استقلال الدول العربية في الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) والعراق حتى الخليج العربي والمحيط الهندي، ثم البحر الأحمر حتى

شواطىء البحر المتوسط. وإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية، وعقد تحالف دفاعي بين بريطانيا وهذه الدول العربية المستقلة والتي ستولى حكمها الشريف حسين. (٩٠)

وهكذا اندلعت الثورة العربية في الحجاز، وكان الشريف حسين قد اتصل بكثير من شيوخ القبائل، ورتب الأمور معهم، وجاءته الامدادات البريطانية حتى يمكنه مواجهة القوات العثمانية. وهكذا هاجمت القوات العربية الثائرة اعتبارا من يونيو ثكنات الأتراك، واشترك العرب مع الإنجليز في مهاجمة مدينة جدة، العرب برا والإنجليز بحرا إلى أن سلمت في ينيو ١٩١٥. كما سلمت الحامية العثمانية في الطائف في ٢١ مارس ١٩١٦.

وأدت هذه العمليات العربية إلى ازدياد الإرهاب التركي في الشام على يد جمال باشا الحاكم التركي هناك، وحدث نفس هذا الإرهاب التركي في العراق أيضا.

وانقسم العالم العربي إلى معسكرين: عربي وإسلامي، وجاءت أخبار الثورة العربية مؤيدة للكفة الأولى، وساعد على ذلك الدفع الإنجليزي والسياسة البريطانية. ونشر الشريف حسين نداء إلى كل المسلمين موضحا أن ثورته تستند إلى الإسلام والقومية العربية . وأكد أن الثورة العربية واجب دينى مقدس، وطلب الالتفاف حوله كشريف مكة، ومجاهد عربي يعمل على توحيد كلمة العرب، وكان هذا النداء أكبر صدمة أصابت دعوة الخليفة العثماني للجهاد الإسلامي ضد الإنجليز والفرنسيين.... تلك الدعوة التي نشرها الخليفة على المسلمين عند دخول تركيا الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا وحلفائها وضد بريطانيا وحلفائها.

وتطورت الأمور إلى أن أعلن الشريف حسين نفسه ملكا في الثاني من نوفمبر ١٩١٦، وذلك أنه جمع عددا من شيوخ العرب الذين نادوا به ملكا على البلاد العربية، وبايعوه على ذلك. وأسرع ابنه عبد الله - وكان يصرف الشؤون الخارجية لوالده - بإبلاغ ذلك إلى إنجلترا وفرنسا. ولم يكن الإنجليز والفرنسيون يرغبون في رؤية البلاد العربية تفلت من أيديهم، فردوا عليه بمذكرتين متطابقتين يعترفان فيهما بالشريف حسين ملكا على الحجاز.

وانقسمت قوات الثورة العربية إلى ثلاث فرق كبيرة، كل منها تحت قيادة واحد من أبناء الشريف حسين، الأولى بقيادة علي ومعسكره أمام المدينة المنورة، والثانية بقيادة عبد الله وعملت على مهاجمة الأتراك في الشمال، والثالثة بقيادة فيصل في الوجه. ووصل تعداد الثورة العربية إلى نحو ٧٠,٠٠٠ مقاتل مزودين بعدد ٣٠,٠٠٠ بندقية.

وهكذا أسهمت قوات الثورة العربية في الحرب العالمية الأولى إلى جانب قوى الوفاق - بريطانيا وحلفائها - واشتركت القوات العربية في الاستيلاء على العقبة، وتم التخطيط لمهاجمة قوات الدولة العثمانية في الشام على مراحل. وانتقل مسرح الحوادث بعد الاستيلاء على العقبة إلى الشام، وأصبح جيش فيصل عبارة عن ميمنة القوات البريطانية التي تقدمت من مصر لاحتلال فلسطين.وأمكن للقوات البريطانية بقيادة اللنبى ونتيجة لمعاونات قوات الثورة العربية من الاستيلاء على غزة والخليل ويافا وبيت لحم والقدس التي احتلتها في ٩ ديسمبر ١٩١٧، مما أدى إلى احتلال بريطانيا لكل فلسطين مع نهاية العام.

واستمرت انتصارات الثورة العربية، ووصلت مقدمة القوات العربية إلى دمشق في ٣ سبتمبر ، وأمكن للشريف ناصر دخولها، ثم جاء اللنبى وفيصل بعد يومين، ولم يفكر أحد من العرب في نتائج دخول الإنجليز إلى دمشق، خصوصا وأن فرنسا كانت قد أرسلت قوة صغيرة لمشاركة القوات البريطانية بقيادة اللنبى في العمليات الحربية في الشام.

وتم الاستيلاء على كل سوريا قبل نهاية أكتوبر ١٩١٧، وسارت العمليات الحربية في خطين: الأول يسير مع الساحل من صور إلى صيدا وبيروت، والثاني إلى الداخل صوب حمص وحماة وحلب. وكان دور العرب واضحا في الخط الثاني من العمليات. وفي أكتوبر سنة ١٩١٧ أمكن للإنجليز اجتياح بيروت.

وهكذا تم لقوات الثورة العربية بقيادة الشريف حسين والقوات البريطانية تخليص سوريا ولبنان وفلسطين أي الشام كله من الأتراك. وأمن العرب إلى الإنجليز، ولكنهم

لم يعرفوا سر وجود القوات الإنجليزية معهم في فلسطين وسوريا ولبنان وجنوب العراق. واحترم رجال الثورة العربية وعودهم، ولم يفكروا مطلقا في أن الإنجليز والفرنسيين قد استغلوهم لتنفيذ مآربهم... ولكن الأيام كشفت ما بيتته إنجلترا وفرنسا لهم، إذا أن قيام دولة عربية كبرى في هذه المنطقة الهامة من الشرق الأدنى كان يتعارض تمام التعارض مع المصالح الفعلية لمن أعطوا لأنفسهم اسم الحلفاء، وهم الاعداء. (٩١)

سابعاً: بريطانيا والوعود المتضاربة

لقد كانت الوعود التي قطعتها بريطانيا على نفسها تجاه العرب تتعارض مع وعود واتفاقات أخرى قطعتها على نفسها تجاه حلفائها الأوربيين في الحرب العالمية الأولى، وتجاه اليهود.

١- اتفاقية سايكس - بيكو:

بدأت دول الوفاق (بريطانيا وفرنسا وروسيا) تفكر في أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، وبمجرد دخول تركيا هذه الحرب إلى جانب دول الوسط (ألمانيا والنمسا) في ضرورة الاستفادة من الموقف الذي سينتج عن هذه الحرب. وذلك بإنهاء مبدأ سلامة أراضي الدولة العثمانية، والعمل على تقسيمها فيما بينها . وكانت روسيا ترغب أشد الرغبة في الاستيلاء على منطقة المضايق التركية والأستانة. أما بريطانيا فإنها أرادت ضم العراق وفلسطين، أما فرنسا فكانت تريد الاستيلاء على سوريا ولبنان.

وتعتبر اتفاقية سايكس بيكو هي أولى الاتفاقيات التي عقدت بين إنجلترا وفرنسا وروسيا في أوائل عام ١٩١٦، ولكن إنجلترا أخفت عن فرنسا الاتفاق الذي كانت قد توصلت إليه مع الشريف حسين شريف مكة، وسيتسبب هذا الموقف في مضايقة فرنسا حينما تعلم به فيما بعد. وكان ممثل فرنسا في هذه المفاوضات هو المسيو جورج بيكو القنصل الفرنسي العام في بيروت سابقا، أما الممثل البريطاني فكان المستر مارك سايكس خبير الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية البريطانية، فوضعا خطة لاستيلاء بلديهما على الولايات العربية في الدولة العثمانية، وأرسلاها إلى حكومتيهما، فوجهتهما هاتان الحكومتان إلى سان بطرسبرج لمناقشة الموقف مع الحكومة الروسية. وقد بدأت المفاوضات هناك في أثناء شهر مارس ١٩١٦، وانتهى إلى تفاهم ثلاثي وسلسلة من المذكرات المتبادلة بين الحكومات الثلاث حددت المناطق والأقاليم العثمانية التي ترغب فيها كل من هذه الدول، والتي اعترفت بها الحكومتان الأخريان كمنطقة نفوذ لها. وطبقا للاتفاق احتجزت روسيا لنفسها

المضايق البحرية التركية والعاصمة الأستانة مع الأقاليم المحيطة بها، والضرورية للدفاع عنها، وكذلك أربع ولايات تركية تقع على الحدود المشتركة مع روسيا في القوقاز. أما فرنسا فإنها احتفظت لنفسها بكل سوريا ولبنان وجزء كبير من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل شمال العراق. وخصصت إنجلترا لنفسها منطقة تمتد من جنوب سوريا حتى العراق، وتضم بغداد والبصرة، وتفصل بين المنطقة الفرنسية وبين الخليج العربي كما تضم من فلسطين حيفا وعكا وغيرها، وإن وافق المندوبون على جعل القدس والمنطقة المحيطة بها منطقة دولية منعا لقيام تنافس فرنسي روسي للتوسع فيها، وما قد يؤدي إليه ذلك من تهديد للمصالح البريطانية في مصر وقناة السويس.

وتعتبر اتفاقية سايكس بيكو أحد الأدلة التي تلطخ الدول العظمى بالعار أثناء الحرب العالمية الأولى، إذ تدل على النفاق السياسي لتلك الدول، لأنها تتعارض تماما مع ما اتفقت عليه بريطانيا مع الشريف حسين شريف مكة.كما أن تلك الدول عمدت إلى إخفاء هذه الاتفاقية عن علم الشريف حسين بعد أن عقدتها، وذلك خوفا من أن يتأثر موقفه من إنجلترا أثناء الحرب، ومن ثم توقف القوات العربية عن معاونة بريطانيا في الجزيرة العربية والشام أثناء الحرب العالمية الأولى. ولم يعرف الشريف حسين والمجاهدون العرب معه خيانة حلفائهم الإنجليز لهم، إلا بعد انسحاب روسيا من الحرب العالمية الأولى إثر اندلاع الثورة البلشفية فيها سنة ١٩١٧، ومعرفة تركيا لنصوص اتفاقية سايكس بيكو وإبلاغها بمضمونها إلى الشريف حسين... وقد حاولت بريطانيا بدهائها المعهود تهدئة خاطر الشريف حسين، والتشكيك في نيات الأتراك، وأنهم يبغون الوقيعة بين العرب وحلفائهم الإنجليز، كما أكدت الحكومة البريطانية على مسؤوليتها عن تأييد الكفاح العربي، وحصول العرب على الاستقلال بعد نهاية الحرب. وكان هذا هو النفاق الخالص إجابة على إخلاص العرب، وتفانيهم في القتال في صالح بريطانيا وضد الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى. (٩٢)

وقد انتهت الحرب العالمية الأولى، وأجبرت تركيا بعد انهزامها مع حليفتها ألمانيا على الانسحاب بقواتها من الأقاليم العربية، وشعر الثوار العرب بأنهم قد شاركوا

مشاركة فعالة في تحرير بلادهم، وانتظروا من بريطانيا أن تفى بوعودها التي قطعتها على نفسها، ولكننا سنجد الاختلاف واضحا في مؤتمر الصلح بين ما يطالب به العرب، ما أراده الإنجليز والفرنسيون.

ولقد سافر فيصل بن الحسين إلى انجلترا للدفاع عن مصالح الوحدة العربية، ولتمثيل والده الشريف حسين في مؤتمر الصلح في باريس، ولكنه تأكد من وضوح المصالح البريطانية والفرنسية في البلاد العربية.

واعترضت بريطانيا على أن اتفاقية سايكس بيكو تعطي لفرنسا ولاية الموصل الغنية بالبترول، وأنها تقيم نظام إدارة دولية في فلسطين، وأن هذه الأمور هي ضد المصالح البريطانية. أما فرنسا فإنها تشبثت بالاتفاقية، إذ أنها كانت الوثيقة الوحيدة التي تضمن مصالح فرنسا في الولايات العربية التي كانت خاضعة لتركيا. ولكن وزارة الخارجية الفرنسية تساهلت في بعض المسائل كي تضمن تطبيق بنود الاتفاقية، فاقترح لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية على فرنسا أن تعترف بالموصل داخل منطقة النفوذ البريطاني نظير إعطاء حصة من بترولها إلى فرنسا، وأن يعترف بسلطة بريطانيا كذلك على فلسطين. وقد وافقت فرنسا على ذلك في مذكرة بتاريخ ١٥ فبراير ١٩١٩.

وشعر فيصل بن الحسين بأن هناك ثلاث قوى تعمل ضد رغبات القومية العربية وأمانيها المشروعة ، وهي القوة الاستعمارية البريطانية في العراق وفلسطين، والقوة الاستعمارية الفرنسية في سوريا ولبنان، ومصالح الحركة الصهيونية المرتبطة بالمصالح البريطانية في فلسطين ، والتي سنتناولها بالدراسة فيما بعد.

وستعمل الحوادث على نزول قوى الشعب العربي في الميدان لمحاولة الاحتفاظ بالأراضي العربية، والوصول إلى تحقيق الأماني العربية، ولكن بريطانيا وفرنسا واجهت ذلك بقواتها المسلحة التي كانت مستعدة للزحف على البلاد العربية واحتلالها.

ويعتبر عام ١٩٢٠ عام النكبة عند العرب، إذ تم فيه احتلال فرنسا لسوريا ولبنان وسيطرة بريطانيا على كل من فلسطين والعراق، وشهد هذا العام بداية مقاومة العرب لقوات الاحتلال الأجنبية، وتم تنظيم القوات الشعبية لمهاجمة الفرنسيين في الشام، واضطرت القوات الفرنسية هناك إلى تجريد الحملات العسكرية ضدهم. كما تعتبر الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ من أقوى الثورات العربية ضد الإنجليز. أما فلسطين فإن انجلترا قد احتفظت بنظام الحكم المباشر فيها، تمهيدا لتثبيت الحركة الصهيونية هناك، وإظهارا لقوة جديدة تعمل لصالح الاستعمار، وتقسم ما بين البلاد العربية وتقف حاجزا بين فرنسا وقناة السويس، كما سنوضحه فيما بعد، وظلت العراق وسوريا ولبنان خاضعة للانتداب الأوروبي حتى قامت الحركات الوطنية وحققت استقلال هذه الدول. (٩٣)

٢- وعد بلفور والحركة الصهيونية:

في إطار الوعود البريطانية المتضاربة.. أصدرت الحكومة البريطانية تصريحا على لسان بلفور وزير الخارجية في ٢ نوفمبر ١٩١٧، وهذا نصه: «يسرني جدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أماني اليهود الصهيونية، وقد عرض على الوزارة وأقرته.

إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لن يؤتي بعمل من شأنه أن يضر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلاد الأخرى». (٩٤)

وواضح تعارض ذلك التصريح أو الوعد مع ما اتفقت عليه بريطانيا مع الشريف حسين بخصوص استقلال الدول العربية بعد الحرب العالمية الأولى، ولكنها السياسة البريطانية التي تتلاعب بالجميع من أجل تحقيق مصالحها.

لقد خططت بريطانيا لإقامة جسم غريب شرق السويس وفي قلب الأمة العربية لتعوق قيام دولة الوحدة العربية.. ففلسطين هي ذلك الجزء من الوطن العربي الذي يقع بين البحر المتوسط في الغرب ولبنان في الشمال، وسوريا ونهر الأردن في الشرق، والبحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء في الجنوب والجنوب الغربي. وهذا الموقع الجغرافي الخطير جعل فلسطين عبر التاريخ ممرا ومرتكزا لكثير من الدول والحضارات المتعاقبة حتى انتهت – مع باقي أجزاء الوطن العربي – بلدا عربيا صريح العروبة أرضا وشعبا.

والواقع أن ذلك الموقع الفريد الذي أعطى لفلسطين تلك المكانة الحضارية الخاصة عبر التاريخ، أعطاها في التاريخ الحديث أهمية سياسية بالغة على المستويين العربي والدولي، ففلسطين من ناحية تشكل قلب الوطن العربي الذي يربط قسمه الأفريقي بالقسم الأسيوي، مما يجعلها دائما نقطة ارتكاز أساسية في أية عملية توحيد سياسية متكاملة للأمة العربية. ومن ناحية أخرى فإن فلسطين هي نقطة التقاء وانطلاق رئيسية في الجسر الممتد على معابر قارات العالم القديم الثلاث، مما يجعلها دائما محورا هاما في مخططات حركة الاستعمار العالمية في التاريخ الحديث والمعاصر.

والقضية الفلسطينية لها وجهان: تتمثل في أحدهما مأساة دامية، وفي الآخر ترتسم جريمة بشعة، فهي قضية شعب انتزعت منه أرضه وأرض أجداده بالقوة ليحل محله شعب غريب لاتربطه بفلسطين أية اعتبارات تاريخية أو بشرية. وعلى أرض هذا الشعب أقيمت دولة غريبة متعصبة مغلقة في عملية تجاهل تامة لواقع خمسة وأربعين قرنا من تاريخ فلسطين، ودون أي اعتبار لمبادىء السيادة وحق تقرير المصير. أما شعب هذه الأرض فقد اقتلع منها وطرد خارج حدود وطنه التاريخي، في أكبر عملية قمع استعمارية عرفها التاريخ، بعد أن استولت الحركة الصهيونية على كل ممتلكاته وآماله. إن أكثر من مليون عربي فلسطيني تحولوا منذ عام ١٩٤٨ إلى لاجئين مشردين يعيشون على فتات مساعدات الأمم المتحدة. (٩٥)

ويبدو الترابط واضحا بين عنصر المأساة ومعنى الجريمة في المفارقات المذهلة التي انطوى عليها تطور القضية الفلسطينية في الفترة ما بين عامي ١٩١٩ و ١٩٤٨. ففي عام ١٩١٩ كانت فلسطين مأهولة بنحو مليون عربي مسلم ومسيحي، في حين كان عدد اليهود لايتجاوز ثمانين ألفا على أبعد تقدير. كما أن الأراضي الزراعية في البلد كانت تبلغ نحو ٢٥ ألف كيلو متر مربع لايملك اليهود منها سوى ٣٥٠ كيلو مترا مربعا، والباقي كان ملكا للعرب المسلمين والمسيحيين. كما أن العرب سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين هم أشد ارتباطا بالبلاد من اليهود، ففيها المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، والذي يربط بوحدة الدين مئات الملايين من المسلمين في كل أنحاء العالم، ومسجد سيدنا عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين، وغيرهما من الأمان المقدسة. كما تضم فلسطين كنيسة المهد والناصرة وغيرها من الأماكن الدينية التي تربط مئات الملايين من المسيحيين برابطة الدين. (٩٦)

أما في عام ١٩٤٨، فإن الواقع أصبح يمثل صورة مغايرة تماما، فالأقلية اليهودية التي كانت أقل من عشر السكان في فلسطين عند بدء المشكلة ارتفعت منذ منتصف القرن العشرين إلى ٢ مليون يهودي جمعتهم الصهيونية العالمية من مختلف أنحاء العالم وحشدتهم في فلسطين العربية، وبينما لم يكن بيد هذه الأقلية اليهودية سوى أقل من ٢٪ من الأراضي الزراعية في عام ١٩١٩، أصبح اليهود مسيطرين على كل شيء في فلسطين.. إن جهدا استعماريا واعيا ومنظما ومتواصلا بذل خلال تلك الفترة لتغيير واقعها البشري والسياسي والاقتصادي، وإعدادها بالتالي أرضا وشعبا للجريمة والمأساة. (٩٧)

ولأن الحركة الصهيونية هي حركة استعمارية، الغرض منها إقامة جسم غريب وسط الأمة العربية حتى تعوق تحقيق مشروعات الوحدة العربية، فإن الموضوع يستحق وقفة ودراسة... لقد كانت هناك بعض النداءات اليهودية قبل بداية تبلور الحركة الصهيونية على يد الكاتب النمسوي اليهودي هرتزل في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. ففي عام ١٧٩٨ طلب أحد اليهود الإيطاليين من جموع اليهود في العالم التعاون وتكريس الجهود للاستيلاء على بعض الأراضي العربية، وأن تعاونهم فرنسا -

أثناء الحملة الفرنسية على مصر - في تحقيق ذلك، وأن يضم مشروع هذه الدولة اليهودية« مصر السفلى بالإضافة إلى منطقة تمتد حدودها على خط يسير من عكا إلى البحر الميت، ومن الطرف الجنوبي للبحر الميت إلى البحر الأحمر. إن هذا الموقع المتفوق على ماعداه، والمتميز عن سائر المواضع في العالم سوف يجعل منا حين نمخر عباب البحر الأحمر سادة تجارة الهند والجزيرة العربية وجنوب أفريقيا وشرقها والحبشة... إن قرب حلب ودمشق سوف يسهل تجارتنا مع بلاد فارس، وعن طريق البحر المتوسط نستطيع إقامة الاتصالات مع فرنسا وإسبانيا وإيطاليا وسائر أنحاء القارة الأوروبية . (٩٨)

وبعد ذلك بعامين أي في عام ١٨٠٠ طالب اليهودي الانجليزي جيمس بيشينو James Bichino الحكام الإنجليز بأن يستخدموا نفوذهم لدى الباب العالي، كي يتخلى الأتراك عن فلسطين ويمنحوها لليهود. (٩٩)

إلا أن الحكام الإنجليز لم يتخذوا خطوات فعالة للاستجابة لهذا المطلب اليهودي إلا بعد ذلك بفترة طويلة إلى حدما، ففي ١١ أغسطس سنة ١٨٤٠، أرسل بالمرستون وزير الخارجية البريطاني إلى سفيره في تركيا يطلب منه السعي لدى الباب العالي كي يصدر قانونا يدعو إلى هجرة اليهود إلى فلسطين «... وأنه من المعروف جيدا أن يهود أوروبا يمتلكون ثروات كبيرة، ومن الواضح أن أي قطر يختار أعدادا كبيرة من اليهود كى يستوطنوه ، سيحصل على فوائد كبيرة من الثروات التي سيجلبها معهم هؤلاء اليهـــود» (١٠٠) ويبدو أن السلطان العثماني لم يوافق على هذا المطلب البريطاني، مما جعل بالمرستون يجدد طلبه في العام التالى (١٨٤١) إلى سفيره في تركيا في محاولة لإقناع السلطان بإباحة الهجرة اليهودية إلى فلسطين. (١٠١)

ولم يتوقف الأمر عند حد مطالبة الباب العالي العثماني بالموافقة على الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بل إن إدوارد لدويتش متفورد Edward Ledwitch في كتابه «نداء باسم الأمة اليهودية» الصادر في عام ١٨٤٥ لم يتورع عن مطالبة الحكومة العثمانية بترحيل العرب الفلسطينيين إلى مناطق زراعية في آسيا الصغرى، حتى يمكن أن تحل محلهم جموع اليهود من شتى بقاع العالم. (١٠٢)

وواضح أن اليهود كانوا - ولازالوا حتى الآن - مقتنعين بأنه لايمكن لهم أن يحققوا أطماعهم إلا بالارتكان على قوة كبرى تساعدهم في ذلك، ونجد أن توماس كلارك Thomas Clark في كتابه الهند وفلسطين الصادر في عام ١٨٦١ يربط بين مصالح الامبراطورية البريطانية ومصالح اليهود فيقول « إن احتلال اليهود لفلسطين تحت الحماية البريطانية هو مسألة حيوية، لأنه إذا كانت بريطانيا تعتمد على تجارتها كحجر الزاوية في عظمتها ، وإذا كان أقرب مجرى للتجارة وأفضله يمر عبر محور القارات الثلاث القديمة، وبما أن اليهود يؤلفون شعبا تجاريا جوهريا ، فليس هناك أفضل من زرعهم على طول ذلك الطريق العظيم للتجارة القديمة. (١٠٣)

إلا أن ليوبنسكر Leo Penisker في كتابه التحرر الذاتي لم يتمسك بفلسطين كوطن قومي لليهود، بل أوضح أن الهدف هو الحصول على قطعة أرض لليهود... أية أرض وفي أي مكان لأن العالم يحتقر اليهود - في رأيه - لأنهم لايشكلون دولة والحل الوحيد لهذه المشكلة هو خلق قومية يهودية يعيش فيها الشعب اليهودى في وطنه الخاص.(١٠٤)

وهكذا نشأت الحركة الصهوينية كحركة سياسية تهدف إلى تحول اليهودية من مجرد دين إلى قومية تتجسد في دولة تجمع كل يهود العالم في وطن قومي خاص.

وقد ظلت الصهيونية في حيز الكتابات الحالمة، حتى استطاع تيودور هرتزل أن يخطو بها أولى خطواتها العملية في الأعوام الأخيرة من القرن التاسع عشر حين أصدر كتابه «الدولة اليهودية» في عام ١٨٩٥ (١٠٥) ولن نتطرق إلى مجهودات هرتزل واتصالاته مع الزعماء الأوربين، بل واتصالاته مع المسؤولين في الأستانة لتسهيل الموافقة على الهجرة اليهودية إلى فلسطين، لأن هذا الاسترسال قد يبعدنا عن موضوعنا الأساسي وهو الوحدة العربية والتحديات التي واجهتها. حقيقة لقد فشل هرتزل في محاولاته مع الدولة العثمانية فشلا ذريعا، ولكنه وجد تجاوبا مع بريطانيا. ولكن الموضوع - لأهميته بالنسبة للوطن العربي - يحتاج إلى بعض التحليل. ونحن إذا تعرضنا إلى وضع فلسطين في مخطط هرتزل الاستعماري، فإننا نجد أن هرتزل لم يقل في بادىء الأمر أن فلسطين هي الوطن القومي اليهودي... ومن المعلوم أنه ذكر

الأرجنتين وأوغندا وقبرص وغيرها كأمكنة لإقامة الدولة الصهيونية عليها. وفي مجال تقييم فلسطين كارض للدولة اليهودية، أوضح هرتزل في مذكراته في ٩ يونيو ١٨٥٩ أن «هناك بعض الأمور ليست في صالح فلسطين، مثل قربها من روسيا وأوروبا، وضيق مجال التوسع فيها، وطقسها الذي لم نعد معتادين عليه». (١٠٦)

ويبدو أن البعد الجغرافي عن أوروبا كان يهمه كثيرا، فقد أوضح في ١١ يونيو سنة ١٨٩٥ «إذا ذهبنا إلى أمريكا الجنوبية، التي لها حسناتها بسبب بعدها عن أوروبا العسكرية المريضة، فسوف تكون معاهداتنا الأولى مع الجمهوريات في أمريكا الجنوبية. (١٠٧)

لذلك عندما حدد هرتزل أرض الميعاد في ١٤ يونيو ١٨٥٩ لم يذكر فلسطين... «لأنى سأخبركم الآن بكل شيىء عن أرض الميعاد إلا عن مكانها، لأننا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار العوامل الجيولوجية والطقس وغيرها من العوامل الطبيعية التي توصل إليها أحدث البحوث» .(١٠٨)

ومما يؤكد أن هرتزل لم يكن قد حدد مكانا بعينه لإقامة الدولة اليهودية قوله «ومتى حددنا القارة والبلد، فسوف نبدأ بالخطوات الديبلوماسية ونسير فيها بغاية اللباقة حتى لايكون عملنا قائما على تصورات مبهمة. لقد فكرت أولا في فلسطين... وهذه حقيقة تجتذب العامة من الناس، ولكن معظم اليهود لم يظلوا بعد شرقيين وقد تعودوا على مناطق مختلفة كل الاختلاف». (١٠٩)

إلا أن انحلال الدولة العثمانية، وضعفها الشديد اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ، وطمع الدول الأوروبية المختلفة في أراضيها، أسهم مع عوامل أخرى في أن يصرف هرتزل نظره عن أمريكا الجنوبية وأوغندا وغيرها ويتجه نحو فلسطين. (١١٠)

ويتبين مما سبق عقم الربط الصهيوني المزعوم بين اليهود وفلسطين، وتلك الادعاءات الصهيونية الكاذبة والخاصة بالحق التاريخي اليهودي، وإلا فلماذا فكروا في الارجنتين وأوغندا وقبرص غيرها لتكون مكانا لإقامة الوطن القومي؟ إن الصهاينة برعوا في توظف التاريخ في خدمة السياسة، أي أنهم زيفوا التاريخ القديم

والوسيط والحديث والمعاصر من أجل احتلال قطعة من الأرض العربية، وساعدتهم على ذلك القوى الاستعمارية المتربصة بالوطن العربي الكبير.

على أية حال انتهز اليهود فرصة الحرب العالمية الأولى، واستخلصوا تصريح بلفور من الحكومة البريطانية التي أعطتهم وعدا يتعارض تماما مع الوعود التي قطعتها على نفسها مع الشريف حسين شريف مكة.

وفي مؤتمر سان ريمو في عام ١٩٢٠ تقرر انتداب بريطانيا على فلسطين، وصدقت عصبة الأمم على هذا القرار سنة ١٩٢٢، والواقع أن هذا الانتداب كان لتنفيذ وعد بلفور لا لتمكين الشعب الفلسطيني من تحقيق استقلاله.

وقد سارت الدولة صاحبة الأنتداب - أي بريطانيا - على سياسة التحيز لليهود في كل ناحية من نواحي الإدارة، فسمحت بفتح باب الهجرة لليهود على مصراعيه، واندفعت شراذم يهود العالم من كل حدب وصوب إلى فلسطين.

وفي عام ١٩٢٠ ألغيت الإدارة العكسرية البريطانية في فلسطين، وأقيمت بدلا منها الأدارة المدنية، وعين هربرت صمويل اليهودي الصهيوني البريطاني مندوبا ساميا لبريطانيا في فلسطين، وكان تعيينه يحمل معنى صبغ فلسطين بالصيغة اليهودية[١١١] وهكذا ازدادت الهجرة اليهودية، وكذلك تسليم الاقتصاد الفلسطيني لليهود... حقيقة إذا كان وعد بلفور هو الموسيقى الافتتاحية لمسرحية الصهيونية فإن الانتداب البريطاني على فلسطين كان الإخراج المسرحي لهذه المسرحية... لقد تبنت بريطانيا تهويد فلسطين، وهكذا ومع استمرار تيار الهجرة اليهودية أصبح هناك شعبان في فلسطين العرب واليهود، مما أدى إلى تبني الأمم المتحدة لمشروع تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧، وقيام دولة إسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨.

وبدأت الدولة العبرية التوسعية والاستعمارية في تنفيذ مخططاتها في المنطقة العربية، وخاضت أربعة حروب مع القوى العربية، ومع تسليمنا بمقومات الوحدة العربية الراسخة فإن الخطر الصهيوني كفيل بتوحد العرب على مواجهته ، ويكفي للتدليل على هذا الخطر تحديد أحد كتاب اليهود الكبار وهو برنفلد في كتابه

«الصهيونية» المنشور سنة ١٩٢٠ لهدف الصهيونية إذ يقول «إنها الحركة التي ترمي إلى عودة جميع اليهود الذين يريدون الهجرة أو لايقدرون على الإقامة في البلاد التي يقطنونها، والذين يبلغ عددهم عشرة ملايين - في ذلك التاريخ - إلى فلسطين لينشئوا دولة يهودية فيها... على أن تمتد هذه الدولة من النيل إلى الفرات». (١١٢)

إن النوايا التوسعية الإسرائيلية تتهدد أغلبية دول المشرق العربي، وبالتالي فإن عملية التوحد العربي ليست ترفا أو موضوعا للمناقشة، لأن المشكلة الحقيقية هي أننا في مواجهة ذلك السرطان الصهيوني المتغلغل في جسم الأمة العربية هي إما أن نكون أو لانكون.

ثامناً: الجامعة العربية

حينما شرع المفكرون العرب يتحدثون عن القومية العربية في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم يكن لديهم مفهوم واضح عن مغزى الفكرة القومية. واختلف هذا المفهوم حسب الانتماء الطائفي بين أبناء الشام، كما أن تصور هؤلاء اختلف عن تفكير الشريف حسين أو أنصاره الذين تطلعوا إلى زعامة الحركة العربية خلال الحرب العالمية الأولى.

وكانت أفكار القومية العربية تدور في أذهان المفكرين العرب في أعقاب الحرب الأولى، حينما وضعت الدول الاستعمارية حدودا ثابتة تفرق بين أربع وحدات في الشام وهي سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن، وتقيم دولة أخرى تحت الانتداب في العراق.

ولابد في هذا الإطار من إبراز تفاقم الخطر الصهيوني نتيجة للهجرة اليهودية المستمرة إلى فلسطين، مما أدى إلى عقد المؤتمرات العربية والإسلامية لتدارس الموقف، فبعد عقد المؤتمر الإسلامي في القدس سنة ١٩٣١، تقرر عقد مؤتمر عربي في بغداد للنظر في تنفيذ توصيات المؤتمر السابق، كما عقد ممثلو البرلمانات العربية مؤتمرا في بلودان سنة ١٩٣٧ لنفس الغرض.

وفي الثلاثينات حاول الملك غازي ملك العراق (١٩٣٣- ١٩٣٩) أن يجعل من دولته محورا لتجمع عربي، وكان الرأي العام مهيأ في سوريا وفلسطين والكويت لقبول مساعي الملك غازي.

وقد برزت اهتمامات مصر بالقضايا العربية بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ مع إنجلترا، ثم جات الحرب العالمية الثانية لتتيح فرصا أكبر للتقارب العربي بمشاركة مصر.

وفي ٢ يوليو ١٩٤١ أرسل الأمير عبد الله أمير شرق الأردن مذكرتين إلى الحكومة البريطانية يعرض فيهما فكرة سوريا الكبرى، وكيف أنه يجب أن تندمج إمارة شرق الأردن مع سوريا، إلا أن الحكومة البريطانية فضلت إرجاء النظر في الموضوع، ولكن

ستنهار آمال الأمير حينما أجريت الانتخابات في سوريا وتسلم الوطنيون الحكم هناك سنة ١٩٤٣.

وفي نفس هذه الحقبة ظهر مشروع اتحادي آخر، وإن كان قد تأخر قليلا بسبب ظروف العراق الداخلية، ونعني بذلك مشروع الهلال الخصيب الذي قدمه نوري السعيد في ديسمبر ١٩٤٢ إلى ريتشارد كيزي وزير الدولة البريطاني لشؤون الشرق الأوسط ونشر باسم الكتاب الأزرق. ويلاحظ أن كلا المشروعين العراقي والأردني قدم لجهات بريطانية، وكان ذلك اتجاها خاطئا من البداية، لأنه ليس من المفروض أن بريطانيا هي المسؤولة عن صنع الاتحاد العربي.

ويختلف مشروع الهلال الخصيب عن سوريا الكبرى في أنه لايدعو إلى اندماج تام بين سوريا والعراق، ولا يطالب بعرش دمشق، كما فعل الأمير عبد الله أمير شرق الأردن، وإنما يهدف إلى إقامة اتحاد فيدرالي بين العراق وسوريا ولبنان وإمارة شرق الأردن وفلسطين، وفي رأي واضع المشروع أنه يمكن منح استقلال إداري لليهود المقيمين حينذاك في فلسطين لأنهم لن يشكلوا خطرا يذكر وسط الدولة الكبيرة المقترحة.

إلا أنه كان من المستحيل تصور قيام اتحاد عربي بدون مصر، ويلاحظ أن كلا من أمير شرق الأردن ورئيس الوزارة العراقية نوري السعيد كان يستبعد مصر من خطة الاتحاد العربي، ويرى أن الخطوة الأولى هي تحقيق مشروع سوريا الكبرى أو الهلال الخصيب حتى ينفسح المجال أمامهما لتزعم حركة الاتحاد.

وقد بدأ الاهتمام المصرى بالفكرة القومية العربية في الخطاب الذي ألقاه وزير العدل نيابة عن رئيس الوزراء مصطفى النحاس في مجلس الشيوخ في ٣٠ مارس ١٩٤٣ وأعلن فيه أن اهتمامه بالقضايا العربية ليس أمرا طارئا بل«... إنني معنى من قديم بأحوال الأمة العربية والمصادقة على تحقيق آمالها في الحرية والاستقلال».[١١٣]

١- تكوين الجامعة العربية:

شجعت بعض قطاعات الرأي العام في مصر حركة التجمع العربي، واشتهر محمد علي علوبه من الأحرار الدستوريين بتبني القضايا العربية في البرلمانات المصرية.

وفي يناير ١٩٤٢ أسس بالاشتراك مع علي ماهر وآخرين نادي الاتحاد العربي. ولكن الحكومة المصرية أخذت زمام المبادرة، إذ قرر رئيس الوزراء مصطفى النحاس دعوة رؤساء الحكومات العربية المستقلة كل على حدة للتعرف على آرائهم في صورة الاتحاد أو الحلف، واستخلاص الاتجاه السائد من هذه الآراء.

وكان نوري السعيد رئيس الوزراء العراقي هو أول من دعا لهذه المباحثات في يوليو ١٩٤٣، ثم توالى وصول مندوبي الدول العربية المستقلة، فحضر إلى القاهرة توفيق أبو الهدى مندوبا عن إمارة شرق الأردن ثم المندوب السعودى، ثم الوفد اللبناني برئاسة رياض الصلح.

ثم اجتمعت الوفود العربية في الاسكندرية في ٢٥ سبتمبر ١٩٤٤، وبعد محاولات طويلة وضعت المبادىء العامة للتعاون بين الدول العربية في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية [١١٤]، فيما سمي ببروتوكول الاسكندرية.

وفي ١٧ مارس ١٩٤٥ اجتمع مندوبو مصر وسوريا والعراق ولبنان وشرق الأردن والسعودية واليمن ومندوب عن عرب فلسطين في قصر الزعفران بالقاهرة لإقرار ميثاق الجامعة العربية في صورته النهائية. وبالفعل أقرت اللجنة الميثاق خلال يومين، ومع تصديق الحكومات العربية عليه وإيداعه الأمانة العامة للجامعة، أصبح الميثاق نافذ المفعول اعتبارا من ١١ مايو ١٩٤٥.

واتسمت عضوية الجامعة في مرحلة النشأة بعدة سمات: فالعدد الأكبر من دولها (٤ دول) جاء من منطقة الشرق العربي، وهناك دولتان من شبه الجزيرة العربية، ومصر من أفريقيا. وكان هذا الوضع يعكس حالة استقلال الدول العربية في ذلك الوقت، فمنطقة الخليج العربي كانت تحت أشكال مختلفة من الحماية البريطانية، ومنطقة المغرب العربي كانت تحت السيطرة الفرنسية. كما أن الدول التي شاركت في إنشاء الجامعة العربية كانت في غالبيتها حديثة الاستقلال، ولها ارتباطات بإحدى الدول الغربية الكبرى بشكل أو بآخر. [١١٥]

٢ - تحليل ميثاق الجامعة العربية

إن تحليل الميثاق يوصلنا إلى أن الجامعة هي منظمة بين دول. ومع أن التيار القومي كان أحد دوافع قيام مفاوضات «الاتحاد العربي» إلا أنه مع تقدم المفاوضات ساد منطق الدولة والحفاظ على السيادة، ففضلت أغلب الدول العربية إقامة تنظيم اختياري ينظم وينسق وينشط التعاون بين الدول العربية في المجالات المختلفة دون المساس بسيادتها واستقلالها. لذلك فإنها في مباحثات بروتوكول الاسكندرية فضلت اسم «جامعة الدول العربية» بدلا من «الجامعة العربية» وحددت مهمة مجلس الجامعة في تنسيق الخطط السياسية بين الدول الاعضاء»، تحقيقا للتعاون بينها، وصيانة استقلالها وسيادتها». وأن قرارات المجلس ملزمة لمن يقبلها.

ووفقا للميثاق، فإن الجامعة هي منظمة تقوم على التعاون الاختياري أو التطوعي بين الدول العربية الأعضاء فيها على أساس المساواة واحترام استقلال الأعضاء وسيادتها. فالجامعة لاتملك سلطة إلزامية على الأعضاء، بل هي أداة تنسيق، ورابطة اختيارية لتحقيق التعاون ولم الشمل. وهي منظمة بين «حكومات» وليست سلطة عليا. وديباجة الميثاق تشير إلى «احترام استقلال هذه الدول وسيادتها». كما تشير المادة الثانية إلى أن الغرض من الجامعة هو «تحقيق التعاون بين البلاد العربية وصيانة استقلالها وسيادتها» . وهكذا فإن البناء القانوني والتنظيمي للجامعة يقوم على مبدأ المساواة بين الأعضاء، وعلى مبدأ احترام سيادة هذه الدول، وينعكس ذلك على مختلف جوانب عمل الجامعة.

كما أن الجامعة لم تنشأ عن وجود قوة إقليمية مسيطرة، استطاعت أن تفرض آراءها على الآخرين، وإنما نشأت نتيجة توازنات، والرغبة في إرضاء كل الأطراف. وانعكس ذلك على النظام القانوني للجامعة، فلكل من الدول الأعضاء صوت واحد في مجلس الجامعة (مادة ٣) وجميع الأصوات متساوية ، فليس لدولة ما حق الاعتراض. ورئاسة المجلس بالتناوب بين الدول الأعضاء (مادة ١٥) ووفقا للنظام الداخلي للأمانة العامة (مادة ٣) فلكل دولة الحق في تعيين أمين مساعد من مواطنيها.

وهكذا ينعكس مبدأ المساواة ومبدأ السيادة أيضا في الأخذ بقاعدة الإجماع في التصويت، وأن القرار لايلزم إلا من وافق عليه، لأن الأخذ بقاعدة الأغلبية مؤداه التزام بعض الدول بقرارات لم توافق عليها. وفي كل الحالات تنفذ قرارات مجلس الجامعة في كل دولة وفقا لنظمها السياسية. وهكذا فإن الدولة لاتلتزم إلا بالقرارات التي وافقت عليها، ولا يكون لما وافقت عليه قوة تنفيذية، إلا بعد إقراره وفقا لنظمها التشريعية والدستورية ورفضت الدول العربية عند إعداد الميثاق قبول مبدأ الأغلبية حتى في حالة مواجهة عدوان خارجي، خشية أن تضطر دولة إلى الالتزام بقرارات لاتوافق عليها.

وقد عكس نظام الأمن المشترك وحل المنازعات بالطرق السلمية الذي أوجده الميثاق هذا الوضع، فهو نظام اختياري، لم يحدد مفهوم العدوان، ولا التدابير التي يمكن أن تتخذ في مواجهته، ولم يوجد الأداة المنفذة لذلك. ولايتدخل مجلس الجامعة إلا إذا لجأت إليه الدولة التي وقع عليها العدوان. وتصدر القرارات المتعلقة بذلك بالإجماع، وإذا ما صدرت فإنها ليست ملزمة إلا برضاء الأطراف المتنازعة. وتسري قاعدة الإجماع أيضا على القرار الخاص بتقدير نوع القضية التي تدرس، وما إذا كانت عدوانا أم لا. وللدولة العضو الحق في الانسحاب الإرادي من الجامعة قبل تنفيذ ذلك بسنة. ولم يشترط الميثاق أن يكون قرار الانسحاب مسببا، كما أن تنفيذه ليس معلقا برأي مجلس الجامعة.

إن الأمثلة السابقة توضح قيام الجامعة العربية على مفهوم الرضاء العام الذي يتطلب اتفاق كل الأطراف فيه. وقد مثلت هذه السمة عنصر قوة وضعف عند الممارسة، عنصر قوة لأنها حافظت على تماسك النظام ومرونته، وحالت دون سيطرة أي دولة عربية بمفردها أو مجموعة من الدول على الجامعة. وفرضت على الدول العربية الكبيرة التي تسعى للعب دور قيادي أن تلجأ إلى مزيج من أساليب الإقناع والضغط، والترغيب والتهديد للحصول على الإجماع العربي لتحقيق الأهداف التي تسعى إليها. كما أنه أعطى الدول الصغيرة ضمانة مادية ومعنوية، ووفر لها شعورا نسبيا بالأمن في مواجهة الدول الأكثر قوة وقدرة، بل أعطاها القدرة على المساومة

والحصول على مكاسب مقابل تأييد قرار أو سياسة ما، وكان من شأن ذلك في نهاية الأمر الحفاظ على وحدة النظام وتماسكه. إلا أنه من ناحية أخرى فإن قاعدة الإجماع فرضت قدرا كبيرا من الجمود والشكلية، فهي في واقع الأمر أعطت حق الاعتراض لكل دولة عربية على حدة، ولم تتمكن الجامعة من العمل إلا في المجالات التي يتحقق فيها الإجماع.

لقد تعامل الآباء المؤسسون من خلال فلسفة «الحد الأدنى» أو «القاسم المشترك الأعظم». فبالنظر إلى تعدد أولويات وسياسات وارتباطات الدول العربية، داخليا وخارجيا، وتباينها، فقد ركزوا على ما يجمع هذه الدول، ويدعم أواصر القربى بينها، وأزالوا من الميثاق ما قد يثير المخاوف. (١١٦)

٣- أهمية تطوير الجامعة العربية:

إذا كانت الجامعة العربية قد استطاعت في حدود اختصاصاتها أن تحقق قدرا من الانجازات سواء على صعيد العلاقات فيما بين الدول العربية، أو فيما يتصل بعلاقات هذه الدول مع الدول والهيئات الأجنبية، مثل تدخلها في النزاع بين سوريا ولبنان سنة ١٩٤٩، والنزاع المصري السوداني في فبراير ١٩٥٨، والنزاع العراقي الكويتي عام ١٩٦١ وتدخلها في حرب الحدود بين المغرب والجزائر في سبتمبر واكتوبر ١٩٦٣ وفي أزمة الحدود بين اليمن الشمالية واليمن الجنوبية في سنة ١٩٧٢، والنزاع الجزائري المغربي الموريتاني حول الصحراء الغربية وغيرها من المشكلات.(١١٧)

هذا بالإضافة إلى أن الجامعة العربية طورت ديبلوماسية مؤتمرات القمة العربية، كما شجعت على التعاون العربي وذلك عبر مجموعة المنظومات المتخصصة التي تشكلت على مختلف المستويات داخل إطار الجامعة وخارجه. ففي إطار الجامعة تم إنشاء منظمات اتسع نشاطها ليشمل مسائل العمل والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، والشئون العلمية والثقافية، ووسائل الاتصال والإعلام. ولقد تشكلت بعض المنظمات مثل منظمة العمل العربية، والصندوق العربي للإنماء الاقصتادي والاجتماعي،

والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والاتحاد العربي للمواصلات السلكية واللاسلكية وغيرها.

أما خارج إطار الجامعة فقد نشط العمل النقابي العربي بجهد لايغفل من الجامعة وبتنسيق مستمر بين أجهزتها، ومن هنا جاء قيام اتحاد المحامين والأطباء والصحفيين والعمال العرب وغيرها.

كما أن الجامعة العربية قامت بتمثيل العرب في مختلف المحافل والمنظمات الدولية مثل الأمم المتحدة ومنظماتها المتخصصة، ومنظمة الوحدة الأفريقية، والتعاون مع هذه الأخيرة في تكوين طائفة من المؤسسات المشتركة مثل المصرف العربي للتنمية في أفريقيا، والصندوق العربي للقروض. [١١٨] هذا إلى التنسيق العربي الفعال أثناء حرب أكتوبر، واستخدام سلاح النفط ضد الدول المنحازة إلى جانب إسرائيل، وخاصة في حقبة السبعينيات من القرن العشرين.

ورغم تلك الانجازات التي حققتها الجامعة العربية، فإن الصورة التي جاء عليها الميثاق، وكذلك التغيرات والتطورات الموضوعية والهيكلية التي حدثت على المستويين الاقليمي والدولي، كل ذلك جعل من الأهمية بمكان تطوير عمل الجامعة.

فالحقيقة أن الميثاق الذي وضع سنة ١٩٤٥ لايرقى إلى تلبية آمال الأمة العربية وتحقيق طموحاتها في الوحدة الشاملة. ومن ناحية ثانية فقد تغيرت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتي وضع فيها ميثاق الجامعة، وقد شمل التغيير فيما شمل الجامعة نفسها سواء في نطاق العضوية فيها الذي اتسع ليشمل اثنين وعشرين عضوا، أو في اتساع مجالات نشاطها السياسي والاقتصادي والثقافي، ونشوء المنظمات العربية المتخصصة التي تدور في فلك الجامعة، مما بيناه آنفا. هذا بالإضافة إلى بروز العديد من الظواهر والأحداث التي أثرت في نشاط الجامعة والتي يأتي على رأسها قيام دولة إسرائيل العدوانية والتوسعية والاستعمارية في قلب العامل العربي. ويمكن أن نضيف إلى ذلك قيام تكتلات دولية كبرى كالاتحاد الأوروبي، ومنظمة الدول الأمريكية، ومنظمة الوحدة الأفريقية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي وغيرها. ولاننسى في هذا الأطار ازدياد حالات التدخل الخارجي في المنطقة العربية،

ولاسيما في منطقة الخليج العربي والقرن الأفريقى، كل ذلك فضلا عن ازدياد حدة الانقسام والتجزيء العربيين في أثناء وفي أعقاب حرب الخليج الثانية (١٩٩٠/١٩٩١) وماجسدته هذه الحرب من تفرد الولايات المتحدة الأمريكية - وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي - بوضع القطب الأوحد المسيطر في التطور الراهن للنظام الدولي.

كما أن من الأسباب التي تتطلب إعادة النظر في الميثاق الحالي للجامعة، فتتمثل في حقيقة أن إنجازات الجامعة العربية في كافة المجالات والميادين، قد جاءت دون المستوى المتوقع، ولا تقاس بمستوى الآمال المعلقة عليها أو حتى الإمكانات المتاحة لديها، ويكفي تدليلا على ذلك الإشارة إلى موقف الجامعة العربية من قضية فلسطين، وعدم قدرة الجامعة العربية من خلالها على مواجهة التحدي الاسرائيلي، وتمكين الفلسطينيين من إقامة دولتهم على ترابهم الوطني.

وقد تعددت كتابات الباحثين العرب في موضوع تطوير الجامعة، إلا أنه بصفة عامة فقد تبلورت نداءات التطوير في عدة اتجاهات رئيسية:

أ- الاتجاه ذو النزعة المثالية

وينطلق هذا الاتجاه في نظرته إلى الجامعة العربية من حقيقة أنها - في صورتها القائمة - لاتتفق وقوة الروابط والصلات التي تجمع بين شعوب الأمة العربية، فمثل هذه الروابط وتلك الصلات من القوة والتماثل بما يكفل تحقيق وحدة عربية اندماجية شاملة تجمع أجزاء الأمة العربية في كل واحد أو في بوتقة واحدة. أما الجامعة العربية بوضعها القائم فلا تعدو أن تكون أداة أو وسيلة لإجهاض مشروع الوحدة العربية.

ويستمر الاتجاه المثالي في توضيح فكرته عن الجامعة من خلال تقييم إنجازاتها ونشاطاتها في الواقع، والتدليل من ذلك على عدم قيامها أصلا على مستوى حركة القومية العربية والوحدة العربية، ومن ثم عجزها عن تحقيق أي تقدم ملموس على هذا الطريق. ويؤكد الأستاذ ساطع الحصري على أنه «إذا نظرنا إلى الأمور من الوجهة الواقعية، وجب علينا أن نسلم بأن جامعة الدول العربية لم تعمل شيئا يذكر في

سبيل تقوية فكرة القومية العربية ونشرها بين الناس، لأن مجلس الجامعة ركز جهوده في القضايا السياسية. أما الأمانة العامة، فقد بقيت بعيدة عن تقرير الواجبات القومية التي يترتب عليها حق التقرير. فلا أغالي إذا قلت أن فكرة القومية العربية لم تستفد من جامعة الدول العربية فائدة تذكر». (١١٩) وغني عن البيان أن مسايرة منطق الاتجاه المثالي في نظرته الجامعة إنما يقتضي تنوير الجامعة الحالية، أو على الأقل إقامة جامعة أخرى عربية شعبية إلى جانب جامعة الدول الرسمية... بما يضمن لنضال الشعب العربي في سبيل حريته التامة، ووحدته الشاملة، ونهضته الواسعة أنسب جو لازدهار هذا النضال، وأرحب مجال لتطبيقه.

ب – الاتجاه الواقعي التشخيصي (التوفيقي):

ينطلق هذا الاتجاه في نظرته إلى الجامعة، وفي تحديد موقفه من إنجازاتها، ومدى الحاجة إلى التطوير من فكرة أساسية يمكن تبسيطها في مقولة أنه «ليس في الإمكان أبدع مما كان» فالجامعة العربية بوضعها القائم تكفل« حدا معقولا وملائما» من التعاون بين الدول العربية وهي – من وجهة نظر أصحاب الاتجاه الواقعي التشخيصي – لاتعدو أن تكون مرآة حقيقية للواقع العربي تعكس بصدق ووضوح تأمين ما يكون عليه هذا الواقع من أوضاع وتفاعلات. وحيث أن الجامعة العربية لم توجدها جمعية عمومية تأسيسية لممثلين عن الشعوب العربية يمكنهم أن يخولوها الصلاحيات ويحاسبوها، وإنما هي نتاج مؤتمر الدول ذات السيادة، وأن الدول التي أوجدتها قد حجبت عنها السلطة أصلا وفرعا، فلم تخولها أي سلطان عليها منفردة أو مجتمعة، وبالنظر إلى أنها تمثل حلا وسطا بين ما ترمي إليه الجدلية القومية والجدلية القطرية، بين النظرة القومية التي ترى أن الحدود والتنوع أمور طارئة في الوطن العربي، والتي تجد تبريرها في وجود أمة واحدة ذات روابط تنسج كيانها الاجتماعي والثقافي والحضارى ، وتدعوها لتنمية المجتمع العربي في مختلف الأقطار، وتطويره لمسايرة آفاق المعرفة العصرية، وحماية الوجود العربي من الغزوة الصهيونية... وبين النظرة القطرية للدول العربية الراغبة في الحفاظ على حدودها الإقليمية وسيادتها القائمة. وبالنظر إلى ذلك كله، فإنه يتعين الوقوف في صدد تقييم انجازات

الجامعة وإيجابياتها عند حد هذه القواعد والأحكام ، وعدم مساءلة الجامعة على أساس صلاحيات لم تمنح لها أصلا.

جـ - الاتجاه الواقعي الإصلاحي:

إن نقطة البدء الأساسية بالنسبة لهذا الاتجاه تكمن في التأكيد على أن الجامعة العربية لاتعدو - في جوهرها - أن تكون «منظمة طبيعية» تكونت بفعل مقومات الوحدة العربية، وبعبارة أخرى فإن الجامعة العربية، على الرغم مما قد ينطوي عليه نظامها من قصور، وما يواجهها من تحديات ، تستطيع أن تبقى وتصمد، وأن تطور نفسها، وأن يطورها أعضاؤها بالقدر الذي يمكنها من تخطي هذه الصعاب ومواجهة تلك التحديات. فما يعترض الجامعة لاينال من وجودها في ذاته ولا يطرح الحاجة إلى استمرار هذه المنظمة أو التخلص منها، بقدر ما يفرض ضرورة إدخال بعض التعديلات والتغييرات التي تجعلها أكثر استجابة لمتطلبات الأمة العربية وواقعها. ولعل أبلغ دليل على ذلك أن الجامعة العربية على الرغم من غياب وحدة عربية شاملة وفعالة، قد صمدت كمركز لاجتماع كلمة العرب، وحالت دون انفراط عقد النظام العربي.

ويبدو أن الاتجاه الإصلاحي يقوم في صدد تقييمه للجامعة العربية ورؤيته لمناهج وسبل تطويرها على افتراض أساس مؤداه أن الجامعة بوضعها القائم تمثل هدفا مرحليا على طريق تحقيق الوحدة العربية الشاملة، وأنها تمثل أمنية قومية قابلة للتحقيق حتى مع وجودها كمنظمة للحكومات. وينظر أصحاب هذا الاتجاه إلى صمود الجامعة أكثر من سبعة وخمسين عاما رغم كل السلبيات التي تشوب عملها، وكل العقبات التي تقف في طريقها، بل رغم ميثاقها المكتوب، على أنه يؤكد حقيقة أنها شيىء آخر فوق «المنظمة الإقليمية».

إن أصحاب هذا الاتجاه الإصلاحي يطالبون بمواجهة التغيرات التي وقعت في العقود الأخيرة، فبعد أن كانت الدول العربية تعاني من تحديات الاستعمار عند تكوين الجامعة، أصبحت تواجه الآن الاستعمار السرطاني الإسرائيلي. كما أن الاقتصاد العربي كان متواضعا غداة قيام الجامعة، ولكنه الآن يشكل اقتصادا قويا وضخما إذا

أحسن تنظيمه، وبالتالي فإنه يتعين جعل التعاون الاقتصادي والاجتماعي العربي في مرتبة موازية لمرتبة التعاون السياسي إن لم يفق عليه.

كما يقتضي الأمر تشكيل القوة العربية الرادعة ، ولا ينبغي الاكتفاء في هذا الصدد بما هو عليه« نظام الأمن الجماعي» كما رسمه الميثاق الحالي للجامعة. فمثل هذا النظام في صورته القائمة تشوبه نقائص كثيرة وخطيرة بالنسبة لمواجهة الاعتداء الواقع على أي من دول الجامعة.

إن معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي لعام ١٩٥٠ قد وضعت أساسا للعمل، ولكن للأسف لم توضع هذه المعاهدة بالفعل موضع التنفيذ.

وإلى جانب ما سبق، لم يتضمن ميثاق الجامعة ضمن أهدافه حماية حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، وذلك بحكم نشأة الجامعة في وقت كانت فيه هذه المسألة تقع في صميم الشؤون الداخلية للدول، أما وقد أصبحت هذه المسألة في مقدمة الاهتمامات والأولويات التي تسعى إليها المنظمات الدولية العالمية الإقليمية، فإنه يتعين تضمين ميثاق الجامعة العربية القائم ما يؤكد من حماية حقوق الإنسان وحرياته الأساسية.

وإذا ما أضيف إلى ذلك تنوع وتعدد المشكلات التي يواجهها العالم العربي في تطوره الراهن في مجالالات السياسة والاقتصاد والأمن والبيئة، لاقتضى الأمر ضرورة النهوض بالعمل العربي المشترك من خلال الجامعة العربية. (١٢٠)

تاسعاً: الوحدة الاندماجية المصرية - السورية (١٩٥٨- ١٩٦١)

لقد أعلنت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر منذ قيامها أن مصر جزء لايتجزأ من الأمة العربية، كما أن من واجبها الوقوف تحت جميع الظروف في صف الشعوب العربية التي تناضل في سبيل تخليص نفسها من سيطرة الاستعمار. وقد تأكدت السياسية العربية في مصر بصدور دستور الجمهورية سنة ١٩٥٦ الذي أعلن أن مصر جزء من الأمة العربية.

والحقيقة أن ثورة يوليو أدركت أهمية المنطقة العربية إزاء الظروف الدولية التي تعيشها، فلا شك أن الحرب العالمية الثانية ساعدت في زيادة أهميتها، فضلا عن أن الأحداث التي تعاقبت بعد الحرب، وما تبعها من ظهور الاتحاد السوفيتي كقوة عالمية لها خطرها، وزياة أهمية منطقة الشرق الأوسط عموما بوجود الطاقة البترولية اللازمة لغرب أوروبا. لقد أكد هذان العاملان رغبة الغرب في استمرار السيطرة على المنطقة، وأدركت الدول العربية بدورها خطورة زيادة أهمية العالم العربي، ولذلك كان من المطلوب أن تركز الدول العربية جهودها، وتوحد سياستها لاستغلال هذه الأهمية المتزايدة للمنطقة العربية لمصلحة العرب.

ثم اتجهت المحاولات الغربية لربط الدول العربية بسياسة المخالفات العسكرية التي قصد من ورائها السيطرة على البلاد العربية تحت تبرير حمايتها من الخطر الشيوعي. ولكن القومية العربية دخلت طورا جديدا منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فقد اتجهت إلى نبذ سياسة المحالفات العسكرية، وكان من الطبيعي أن تواجه سياسة ثورة يوليو بتكتل غربى لاقصائها وعزلها عن العالم العربي، وخاصة لما قد يترتب على سياسة مصر العربية من عرقلة للنفوذ الغربي. (١٢١)

١- حلف بغداد:

لم يكن حكام العراق هم الذين يسعون وحدهم إلى ربط بلادهم بالاحلاف الغربية، فقد دخلت دولتان جديدتان إلى سياسة الشرق العربي تغذيان هذا الاتجاه

وهما تركيا والولايات المتحدة الأمريكية ، بالإضافة إلى الاستعمار التقليدي ممثلا في بريطانيا.

كذلك خرجت الولايات المتحدة عن سياستها التقليدية التي كانت تمتنع بمقتضاها عن التدخل في شؤون الشرق الأوسط السياسية مكتفية بالنشاط الاقتصادي، وتاركة لبريطانيا إدارة الشؤون السياسية. فقد تصور كثير من الأمريكيين أن الرأي العام في الشرق العربي يمكن أن يكون أكثر تقبلا للتحالف مع الولايات المتحدة التي ليس لها ماض استعمارى منه لفكرة التحالف مع بريطانيا.

ولعل الأمريكيين أخذوا يشعرون بفساد تلك الفكرة حينما تقدموا إلى مصر سنة ١٩٥١ بمشروع حلف عسكرى يغطى الحوض الشرقي للبحر المتوسط، فنبذته الحكومة المصرية توا. وستظل مصر حجر عثرة في سبيل حكام العراق الموالين للغرب، حتى قيام الثورة العراقية في يوليو ١٩٥٨.

ومن الشائع أن حلف بغداد كان هو الاتفاقية التي ربطت العراق بعجلة الغرب، والواقع أنه حلقة واحدة في سلسلة اتفاقيات تمت بين أبريل ١٩٥٤ وأبريل ١٩٥٥. وكانت الحلقة الأولى عبارة عن اتفاق ثنائي بين العراق وبين الولايات المتحدة تعهدت فيه الأخيرة بتزويد العراق بالأسلحة بشروط معينة، وحجة الولايات المتحدة في ذلك هي أنها كانت قد امتنعت من قبل عن تزويد دول المشرق العربي بالسلاح حرصا على أمن إسرائيل، وإذن كان لابد من أخذ الضمانات إذا ما أريد منها الخروج على هذه السياسة. هذا بالإضافة إلى اتفاق الطرفين على عدم قيام العراق بأي عدوان على دولة أخرى، وأن يكرس جميع موارده الاقتصادية والبشرية لتدعيم أمنه الداخلي والدفاع عن العامل الحر، وأنه يجب على العراق أن يقدم للولايات المتحدة جميع المواد الخام التي تزيد عن حاجته .

وقد وقع هذا الاتفاق الثنائي بين العراق والولايات المتحدة في أعقاب ميثاق آخر تم عقده بين باكستان وتركيا تحت رعاية الولايات المتحدة، وهذا الميثاق جزء من سياسة الولايات المتحدة العامة الرامية إلى إحاطة الاتحاد السوفيتى بحزام من الاحلاف العسكرية.

وفي هذا الإطار لابد أن نشير إلى أن مصر أرسلت صلاح سالم – أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة – إلى العراق لحث المسؤولين على عدم السير في سياسة التحالف مع الغرب. ودرات مباحثات بينه وبين نوري السعيد – الذي كان خارج السلطة في ذلك الوقت – في أغسطس ١٩٥٤ . ودافع صلاح عن ميثاق التضامن العربي، وكيف أنه يعد أفضل وسيلة لتحقيق أمن الدول العربية بدون إقحام تركيا. وقد وافق نوري السعيد مبدئيا على استبعاد تركيا موضحا أنها تطمع في ولاية الموصل، وربما تود تكرار مأساة الاسكندرونه – الإقليم الذي انتزع من سوريا وضم إلى تركيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى – إلا أن نوري السعيد سخر من فكرة الدفاع العربي المشترك، لذا عاد صلاح سالم إلى القاهرة دون التوصل إلى اتفاق. وبعد زيارة خاطفة قام بها نوري السعيد إلى القاهرة، ثبت أنه من المستحيل التوفيق بين الحكومتين العراقية والمصرية.

كما أن رفض سوريا الدخول في هذه الأحلاف، كان ضربة قاضية للخطط العراقية، أدت إلى توجيه ميثاق بغداد وجهة أخرى، فقد فتح باب عضويته لبريطانيا ثم إيران وباكستان، وبذا صار مكملا للميثاق التركي الباكستاني الذي تأسس تحت رعاية الولايات المتحدة أيضا.

ومن المعروف أنه كان للحكومة المصرية الفضل الأكبر في إفساد خطط نوري السعيد ، فقبيل عقد الميثاق بين العراق وتركيا دعت مصر رؤساء الحكومات العربية إلى عقد جلسة استثنائية للجامعة العربية في ٢٦ يناير ١٩٥٥، وتبين بعد هذه الجلسة استنكار ومعارضة معظم الحكومات العربية للانضمام إلى حلف بغداد. [١٢٢] وعلى أية حال فبعد قيام الثورة العراقية في يوليو ١٩٥٨ أصبح الميثاق العراقي التركي كأنه لم يكن.

لقد أردنا من العرض السابق لحلف بغداد أن نوضح الأخطار المحدقة بالأمة العربية، من جراء تلك التكتلات المشبوهة ضدها، والتي كانت ترمي من بين ما كانت ترمي إليه «دمج» إسرائيل في المنطقة العربية، وإدخالها في هذه الأحلاف لمواجهة خطر مزعوم هو خطر توغل الشيوعية ولمواجهة السياسات السوفيتية، وإن كانت

العملية في واقع الأمر ليست إلا محاولة للهيمنة الغربية على العالم العربي. وهذه الأخطار في الواقع مهدت كثيرا للتقارب المصري السوري، وما كان من قيام الوحدة الاندماجية المصرية السورية في ٢٢ فبراير ١٩٥٨.

٢- مقدمات الوحدة:

كانت بلاد الشام في الماضي حقلا خصبا لانتشار المذاهب الدينية المعروفة في الشرق. وفي هذه الحقبة حلت الخلافات السياسية محل الخلافات الدينية، فصارت سوريا مرآة تعكس جميع التيارات الموجودة في العالم العربي، المحافظ منها والتقدمي، والمتطرفة في هذا الاتجاه أوذاك ولعل للموقع الجغرافي المتوسط بعض الأثر في إيجاد هذا الوضع.

ولم يجرؤ أنصار التحالف مع الغرب على إعلان موقفهم صراحة سنة ١٩٥٤ ، وقد ثبت فيما بعد أن عديدا من ساسة سوريا اتصلوا بنوري السعيد وغيره من الساسة العراقيين الذين ساهموا في صنع حلف بغداد.

وفي نفس الوقت وقعت الأحداث التي سببت التوتر بين مصر وسوريا. فقد فتحت الحكومة السورية الباب أمام اللاجئين من جماعة الإخوان المسلمين المنحلة في مصر... ولا أدل على هذا التوتر من إلغاء الزيارة التي كان صلاح سالم - عضو مجلس قيادة الثورة في مصر - قد أزمع القيام بها إلى دمشق في صيف ١٩٥٤، وذلك ضمن مساعيه الرامية إلى إثناء الدول العربية عن سياسة الأحلاف الغربية. فما هي العوامل التي حولت اتجاه السياسة السورية تحويلا جذريا في مدة لاتزيد عن ستة أشهر؟

في هذه الأثناء كان قد تم التوقيع على معاهدة الجلاء المصرية البريطانية، ولذا بدأت مصر تكرس جهودها لمناهضة حلف بغداد وطلبت من الحكومات العربية أن تعلن أن جميع الأحلاف العسكرية تعتبر مناقضة لميثاق الجامعة العربية، وأن التحالف مع تركيا يعنى التحالف مع إسرائيل.

وعلى إثر ذلك عهد الرئيس السوري الأتاسي بالحكم إلى خصوم الأحلاف، وهكذا تشكلت وزارة صبري العسلي الثانية، واقترن تشكيل الوزارة الجديدة بحادثين هامين

لفتا النظر إلى أهمية التعاون السوري المصري، أولهما حشد الجيوش التركية على حدود سوريا، وثانيهما وقوع عدوان إسرائيلي كبير على غزة في ٢٨ فبراير ١٩٥٥.

وعلى أثر ذلك بادر كل من شوكت شقير وعدنان المالكي وخالد العظم - من الجانب السوري - وصلاح سالم ومحمود رياض عن مصر إلى عقد اتفاق على إنشاء قيادة عسكرية مصرية سورية موحدة. وجاء في مقدمة الاتفاق أن الهدف الأول هو معارضة ميثاق بغداد الذي أدى إلى تفتت دول الجامعة العربية.

ولم يخرج الاتفاق الجديد سوريا عن موقفها السلبي السابق فحسب، بل أدى بها إلى المشاركة الإيجابية مع مصر في مناهضة الأحلاف الغربية. فعلى أثر توقيع الاتفاق طاف كل من صلاح سالم وخالد العظم بعدة عواصم عربية لدعوتها إلى الالتحاق بالاتفاق العسكري الجديد. (١٢٣)

وأعلن جمال عبد الناصر في حفل التصديق على الاتفاقية«أن هذه الاتفاقية هي فاتحة مستقبل جديد ، فالتاريخ يرينا أنه إذا ما اتحدت سوريا مع مصر فإنهما ستحميان العالم الشرقي من جميع الأخطار التي يمكن أن تتهدده». وقد أنشئت بموجب الاتفاق لجنة عليا، وهيئة لشئون الدفاع ، وقيادة مشتركة بقيادة عبد الحكيم عامر. (١٢٤)

ونتج عن ذلك الاتفاق تقارب سوري سوفيتي، وتلقي سوريا للأسلحة من الاتحاد السوفيتي وتشكيوسوفاكيا ، وهكذا بدأت المؤامرات الغربية تتوالى على سوريا، وأخذت الاحداث في التتابع بعد تأميم مصر لقناة السويس في يوليو ١٩٥٦، لذلك يلاحظ أن اختيار مكان الاجتماع للمتآمرين على سوريا وقع على «شملان» حيث كانت بريطانيا تستخدم مدرسة لتعليم اللغة العربية ستاراً لأعمال مخابراتها في المنطقة، أي أن بريطانيا والولايات المتحدة صارتا تشتركان إيجابيا مع العراق في هذه المؤامرات. وهناك إشارات إلى أن لجنة ثلاثية تضم مندوبين عن المخابرات الأمريكية والبريطانية والعراقية تكونت في هذه الحقبة لتدبير المؤامرة بالاتفاق مع بعض العناصر السورية اليمينية.

والواقع فإن حجم المؤامرة كان مزدوجا... فقد ذكر عبد الله سعادة - أحد الشهود أثناء المحاكمة بعد انقلاب القوميين السوريين الفاشل سنة ١٩٦١ - أن الحكومة العراقية وجهت تعليمات إلى المتآمرين بالبدء في المؤامرة على سوريا يوم ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ ... أي في يوم العدوان الثلاثي على مصر، ولايمكن أن يكون ذلك من قبيل المصادفة، ولكن الشاهد أضاف بأنه من الجائز أن الحكومة العراقية تلقت هذا الأمر من المخابرات البريطانية دون أن تعلم أنه يتفق مع العدوان الثلاثى على مصر.

وقد كانت بريطانيا هي التي تمسك وحدها بخيطي المؤامرة ضد مصر وسوريا، لأن الولايات المتحدة كانت تشترك في المؤامرة على سوريا فقط، بينما تشترك فرنسا في العدوان على مصر دون أن تتصل بالمؤامرة على سوريا، وليس من السهل البت في مثل هذه القضايا التي ترقد وثائقها في إدارات المخابرات.

إلا أنه يبدو أن عجز العدوان الثلاثي على مصر عن تحقيق أهدافه، قد ثبط من همة المتآمرين على سوريا. وأمكن لعبد الحميد السراج أن يعلن في ٢٣ نوفمبر ١٩٥٦ عن اكتشاف المؤامرة الأمريكية البريطانية العراقية مع بعض الأحزاب اليمينية السورية ضد الوطن السوري.

ولكن يجب رصد أنه حتى وقوع العدوان الثلاثي على مصر، كان العراق منفردا أحيانا، وبالاشتراك مع بريطانيا أحيانا أخرى، هو الذي يتزعم المؤامرات ضد سوريا، واكتفت الولايات المتحدة في هذه المرحلة بالدعم المالي. أما بعد العدوان الثلاثي، فقد دخلت الولايات المتحدة كعنصر أساسي في عمليات التآمر على سوريا، نتيجة لتغيير سياستها الرسمية إزاء الشرق الأوسط. ومن المعروف أن الولايات المتحدة اعتبرت بريطانيا عاجزة عن تولي مهمة الدفاع عن الشرق الأوسط بعد فشلها في تحقيق أهداف العدوان الثلاثي على مصر، وأطلقت على الموقف المترتب على ذلك «بالفراغ» لأنها لم تقنع بأن الدول الوطنية التي نشأت في المنطقة قادرة على الدفاع عن نفسها ضد خطر وهمى اعتقدت الولايات المتحدة بأنه الاتحاد السوفيتي. وعلى ذلك أصدر أيزنهاور مبادئة المعروفة التي تملأ الولايات المتحدة بمقتضاها هذا الفراغ.

وبمقتضى هذه المبادىء يجوز للحكومة الأمريكية أن تقدم المساعدة في أي وقت لصد «عدوان الشيوعية الدولية» بناء على طلب الحكومات المعنية في المنطقة، واعتمد الكونجرس لتنفيذ هذه المبادىء مبلغ مائتي مليون دولار في ٥ مارس ١٩٥٧.

وفي ١٣ مارس من نفس العام انضمت الولايات المتحدة إلى اللجنة العسكرية لحلف بغداد، وبناء على ذلك كان يمكن لتركيا أو للحكومات العربية الضالعة مع الغرب أن تستعدي الولايات المتحدة على سوريا بحجة أنها تهدد أمنها.

حقيقة إن سوريا كانت بعيدة كل البعد عن كونها دولة شيوعية، إلا أن بعض الصحف الأمريكية درجت على أن تخلط بين الوطنية وبين الشيوعية، وبالفعل نشرت النيويورك تايمز في أغسطس ١٩٥٧ عن قيام دولة جديدة دائرة في فلك الاتحاد السوفيتى بالشرق الأوسط، وادعت أنها سوريا.

كما أنه في صيف عام ١٩٥٧ استخدمت المخابرات الأمريكية بعض قادة الجيش السوري السابقين للقيام بمؤامرة والاستيلاء على السلطة في سوريا، ولكن تم اكتشاف المؤامرة قبل حدوثها، وبالتالي فكرت الولايات المتحدة في أن تستخدم مبادىء أيزنهاور الخاصة «بالفراغ» ضد سوريا، فأوفدت لوي هندرسون وكيل وزارة الخارجية الأمريكية في مهمة خاصة بالشرق الأوسط. وقد طاف خلال شهر أغسطس ١٩٥٧ بكل من تركيا والعراق ولبنان والأردن، وكانت هذه الدول وثيقة الصلة بالغرب في ذلك الوقت، ولم يكن لسوريا جيران يتاخمون حدودها بالإضافة إلى هذه الدول سوى إسرائيل.

ومن هنا نتبين إلى أي حد صارت سوريا واقعة تحت الضغوط من جميع الجهات. وإذا أضفنا إلى ذلك أن هندرسون كان خبيرا في شؤون الانقلابات لا تضح لنا إلى أي مدى نظر المسؤولون في سوريا إلى هذه البعثة الأمريكية نظرة التوجس والريبة.

وأمام هذه الأخطار المحدقة اتخذ الجيش السوري منفردا قرارا باستقدام كتيبتين مصريتين إلى اللاذقية ، وتمت العملية بسرية تامة في ١٤ أكتوبر ١٩٥٧.

ومن جهة أخرى أبدى الاتحاد السوفيتي استعداده لمساعدة سوريا في هذه الظروف العصيبة، وعرض على الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا أن تشترك معه في تصريح رباعي تتعهد فيه بعدم استخدام القوة في الشرق الأوسط. إلا أن الدول الثلاث اعتبرت المشاركة في مثل هذا التصريح تسليما منها أن الاتحاد السوفيتي صار من بين الدول المسؤولة عن المنطقة، وهو ما كانت مبادىء أيزنهاور تعمل لتحاشيه.

ويبدو أن السوفيت اعتبروا تركيا أكثر الدول المجاورة تهديدا لأمن سوريا، وتقع فوق أراضيها أهم القواعد العسكرية الأمريكية في الشرق الأوسط في ذلك الوقت، ومن الجائز استخدام الخلافات السورية التركية القديمة لتحريض الأتراك بالفعل على مهاجمة سوريا، لذلك كتب بولجانين إلى رئيس الوزراء التركي في ١٠ سبتمبر ١٩٥٧ تحذيرا هاما على شكل رسالة جاء فيها «... ليس من الممكن للاتحاد السوفيتي أن ينظر إلى كل هذه التطورات الأخيرة بدون اكتراث. ومن الطبيعي أن تثير التقارير الخاصة بهذه الحشود التركية على حدود سوريا هذا السؤال : ماذا يكون موقف الأتراك لو أن فرقا أجنبية احتشدت على حدود بلادهم نفسها؟ ليس من شك في أننا واثقون من أن الأتراك سيأسفون في مرارة لأنهم يتبعون نصيحة الدوائر الأجنبية التي لايهمها في كثير أن يبقى السلام في منطقة الشرق الأوسط، بل كل ما يهمها هو استغلال مصادر الثروة الطبيعية في هذه المنطقة. ونحن مقتنعون بأن الحرب لو قامت في سوريا، ثم انتشرت في بقية بلاد الشرق الأوسط فإن تركيا ستفقد كل شيىء إذا ما اشتركت في هذه الحرب».[١٢٥]

عجلت هذه المخاوف بالخطى نحو الوحدة المصرية السورية، فبعد نزول القوات المصرية باللاذقية اجتمع مجلس النواب السوري مع مجلس الأمة المصري في جلسة مشتركة لإقرار مبدأ الاتحاد الفيدرالي.

وفي ١٢ يناير ١٩٥٨ بادر ١٤ من كبار الضباط السوريين بالسفر إلى القاهرة، وهم مصممون على تحقيق الوحدة بأي شكل، [١٢٦] وفي مقابلتهم لجمال عبد الناصر في ١٤ يناير ١٩٥٨، وضع الرئيس نقطتين أساسيتين لقيام الوحدة: الأولى أنه لابــد من حل

الأحزاب السياسية في سوريا أسوة بما حدث في مصر، والثاني أن الجيش السوري يجب أن يبتعد عن السياسة، وبخاصة أن هذا الأمر قد حسم في القاهرة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢.

وفي اليوم التالي (١٥ يناير ١٩٥٨) التقى الوفد العسكري السوري بالرئيس جمال عبد الناصر وأبلغه بالموافقة على حل الأحزاب السياسية في سوريا، والموافقة على ابتعاد الجيش السوري عن العمل الحزبي. وهنا أعلن جمال عبد الناصر موافقته على قيام الوحدة.

والواقع فإن مجلس الوزراء السوري وجد نفسه في مواجهة طغيان جماهيري كاسح، لايستطيع معه سوى أن يقبل الوحدة الاندماجية مع مصر. وكان أول رد فعل للوحدة المصرية السورية، أن الولايات المتحدة أوعزت إلى العراق والأردن بأن هذه الوحدة تهدد كيانهما، ومن ثم فيحسن إقامة اتحاد بين الدولتين (١٢٧) ولذلك الغرض عقدت اجتماعات بين المسؤولين العراقيين والأردنيين، انتهت بتوصل الطرفين إلى عقد الاتحاد العربي (الاتحاد العراقي الأردني) في ١٤ فبراير ١٩٥٨، على أن تبقى المعاهدات الدولية التي ارتبطت بها الدولتان قبل الاتحاد كما هي مرعية بالنسبة للدولة التي عقدتها، وأن تحتفظ الدولتان بشخصيتهما المستقلة وبسيادتهما على أراضيهما، وأن يبقى الاتحاد مفتوحا أمام الدول العربية التي ترغب في الانضمام إليه. واتفقت الدولتان على توحيد السياسة الخارجية والتمثيل السياسي، ووحدة الجيشين العراقي والأردني وإزالة الحواجز الجمركية. وواضح أن هذا الاتحاد كان كرد فعل على الوحدة المصرية السورية، مع توسيع رقعة حلف بغداد تحت الوصاية الأمريكية.

ومن أجل تدعيم الاتحاد العراقي الأردني، سعت الولايات المتحدة إلى تقديم المساعدات للعراق والأردن، كما يمكن القول بأن الولايات المتحدة شاركت العراق والأردن في وضع الشروط واللوائح الخاصة بالاتحاد (١٢٨)، وواضح الموقف المعادي الأمريكي لقيام الوحدة المصرية السورية.

ولم تقف الولايات المتحدة من تأييدها للاتحاد العراقي الأردني عند هذا الحد بل أقنعت إسرائيل بأن هذا الاتحاد ليس موجها ضدها. إلا أن الثورة العراقية في يوليو ١٩٥٨ وضعت حدا لهذا الاتحاد ، وذلك بقيام الجمهورية العراقية.

٣- الوحدة الاندماجية:

في أواخر يناير ١٩٥٨ حضر إلى القاهرة شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية وبرفقته كل أعضاء الحكومة السورية برئاسة صبري العسلي. وفي جلسة تاريخية عقدت في قصر القبة في أول فبراير ١٩٥٨ واجتمع فيها جمال عبد الناصر ومعه جميع أعضاء الحكومة المصرية بالوفد السوري، صدر عن هذا الاجتماع إعلان قيام الوحدة بين مصر وسوريا في دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة، وأن يكون نظام الجمهورية ديموقراطيا رئاسيا يتولى فيه السلطة التنفيذية رئيس الدولة ويعاونه وزراء يعينهم، ويكونون مسؤولين أمامه. وحدد في هذا الإعلان تاريخ ٢٢ فبراير ١٩٥٨ ليكون يوم الاستفتاء على قيام الوحدة، وكذلك الاستفتاء على رئيس الدولة. وبالفعل جرى الاستفتاء في ٢٢ فبراير على الوحدة وعلى اختيار رئيس الدولة، فكانت موافقة جماعية في مصر وسوريا على الوحدة وعلى اختيار شخص جمال عبد الناصر رئيسا لدولة الوحدة.

وفي ٥ مارس ١٩٥٨ أعلن الدستور المؤقت للجمهورية العربية المتحدة، ولنظام الحكم فيها. وقد تضمن الدستور أن الدولة لعربية المتحدة جمهورية ديموقراطية مستقلة ذات سيادة، وشعبها جزء من الأمة العربية، وينظم الاقتصاد وفقا لخطط مرسومة تستهدف المصلحة العليا والعدالة الاجتماعية، وأن المواطنين سواء أمام القانون. والحريات العامة مكفولة في حدود القانون . كما نص الدستور على أن رئيس الدولة هو رئيس الجمهورية، ويتولى السلطة التنفيذية. كما يتولى مجلس الأمة السلطة التشريعية.

وقد ضمت أول حكومة شكلت بعد قيام الوحدة كلا من أكرم الحوراني – رئيس مجلس النواب السوري قبل الوحدة وهو بعثي – وصبري العسلي – رئيس الوزارة

السورية قبل الوحدة - كنائبين لرئيس الجمهورية. كذلك ضمت أول حكومة عددا ملحوظا من الوزراء البعثيين واشترك في الوزارة أيضا بعض الوزراء من العسكريين.(١٢٩)

ومنذ قيام الجمهورية العربية المتحدة، عمدت الدولة إلى اتخاذ إجراءات اقتصادية بهدف إحداث التفاعل الإقتصادي بين الأقليم الشمالي - سوريا - والأقليم الجنوبي - مصر - إذ كان لابد من وضع برنامج للتعاون والتطوير الزراعي، ولتحقيق ذلك أصدرت الدولة قانون الإصلاح الزراعي في أواخر عام ١٩٥٨. ولقد نسب الكثيرون إلى هذا القانون أنه أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى الانفصال سنة ١٩٦١. ولقد كثرت الشكاوي العامة بسبب تذمر ملاك الأراضي الزراعية الذين كانت تنتزع ملكياتهم لبعض أراضيهم الزائدة عن حدود القانون، الأمر الذي أدى بالمشير عبد الحكيم عامر إلى تشكيل لجنة وزارية برئاسة مصطفى حمدون وزير الإصلاح الزراعي البعثي للتحقيق في شكاوي الملاك، والإشراف على حسن تطبيق قانون الإصلاح الزراعي. (١٣٠)

كما وضعت الجمهورية العربية المتحدة خطة شاملة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية لمدة خمس سنوات (١٩٦٠- ١٩٦٥) كان الغرض منها زيادة الانتاج في كل من إقليمي دولة الوحدة، كما اتخذت الإجراءات اللازمة لزيادة التبادل التجاري بين الإقليمين. وكان من الضروري بعد إعلان الوحدة توحيد التشريعات العمالية في الإقليمين، ولهذه الغاية صدر القانون رقم ٩١ لسنة ١٩٥٩ جامعا لشتات القوانين المختلفة في قانون واحد، وعلى هذا الأساس تم توحيد قوانين شؤون العمل والعمال في الإقليمين.

كما أنه بعد صدور الدستور المؤقت (مارس ١٩٥٨) أطلق على الجيش السوري الجيش الأول، وأطلق على الجيش المصري الجيش الثاني. ونتيجة للنقص في عدد الضباط في الجيش الأول، فإن المشير عبد الحكيم عامر قام بتعزيز الجيش الأول بعدد من الضباط والقادة المصريين، وتضمنت الدفعة الأولى من هؤلاء نحو مائة وعشرين ضابطا.

ولقد شهدت الأشهر الأولى من الوحدة عملية إنهاء الخدمة لعدد من الضباط السوريين الشيوعيين، والجدير بالذكر أن الحزب الشيوعي السوري كان معارضا لقيام الوحدة المصرية السورية. كما أن جمال عبد الناصر رأى ضرورة إعادة النظر في موقف الضباط السوريين البعثيين. ففي يوليو ١٩٥٨ سافر المشير عبد الحكيم عامر بتوجيه من جمال عبد الناصر إلى دمشق، وبعد دراسته للموقف ، أمر بنقل نحو أربعين من الضباط السوريين إلى القاهرة. وكان نصف هؤلاء الضباط من البعثيين والنصف الآخر من المستقلين. وواضح أن القاهرة التي ألغت الأحزاب، سوف لن تشجع النظام الحزبي في سوريا وخاصة بين الضباط.

واستمرت عملية إدماج الضباط المصريين في الجيش السورى طيلة العام الأول من عمر الجمهورية العربية المتحدة، وبدأ المواطنون السوريون يشعرون بأن الجيش في ظل الوحدة قد ابتعد عن السياسة وركز اهتمامه على عمليات التدريب والإعداد العسكري. ولكن بمرور الزمن ، ظهرت بعض الاحتكاكات في العمل بين الضباط السوريين والمصريين في الأقليم الشمالي، وبدأت النعرة الأقليمية في التسلل إلى صفوف الجيش، ما سيكون له أثره في الانفصال سنة ١٩٦١.

وفي نوفمبر ١٩٥٩ تشكلت ثلاث وزارات إحداها مركزية ومقرها القاهرة ووزارة للأقليم الشمالي ووزارة للأقليم الجنوبي وكان غرض جمال عبد الناصر من تشكيل الوزارةالمركزية استقطاب بعض الأقطاب البعثية في القاهرة، كما دعم قوة البعث في المجلس التنفيذي السوري بعناصر بعثية جديدة، أي أن عبد الناصر استقطب حزب البعث السوري، ولم يسمح له بأن يضع يده على الحكم، ومن ثم بدأت حملة النقد البعثي لعبد الناصر، واقتضى تزايد الخلاف أن يرسل عبد الناصر المشير عامر إلى دمشق متمتعا بصلاحيات رئيس الجمهورية، وأراد الأخير أن يقبض على أئمة الأمور بحزم، مما أدى بالوزراء البعثيين إلى تقديم استقالاتهم، وازدادت هوة الخلاف بين سياسة الجمهورية وحزب البعث. وقد قام جمال عبد الناصر في مارس ١٩٦١ أثناء زيارته السنوية لسوريا بتأميم البنوك فيها، كما كان قد تم قبل ذلك في مصر .

ومن المظاهر السلبية للاندماج فرض منظمة سياسية واحدة هي الاتحاد القومي على كلا الإقليمين، لأنه إذا كان جمال عبد الناصر قد استطاع بمرور الزمن أن يضعف التيارات الحزبية في مصر بعد الثورة، فإن إجراء حل الاحزاب في سوريا جاء بطريقة مفاجئة ، وليس معنى ذلك أن الأحزاب السياسية قد جرؤت على المعارضة، ولكنها لجأت إلى العمل في الخفاء أو اللجوء إلى خارج البلاد للمحافظة على كيانها.

وفي أثناء هذه المرحلة الحرجة التي كانت تمر بها سوريا، أصدر جمال عبد الناصر قرارات يوليو الاشتراكية سنة ١٩٦١. ولقد استدعت قرارات يوليو تعديلا في نظام الحكم، وساد الاتجاه نحو زيادة الاندماج بين الإقليمين على مستوى السلطة التنفيذية، فتشكلت حكومة واحدة للإقليمين ، وأنشئت وزارات مركزية فقط ، بعد أن كان لكل إقليم مجلسه التنفيذي المنفصل بكامل هيئته، ولم يستمر العمل طويلا في هذا الاتجاه لأنه سرعان ما وقعت حركة الانفصال.

وعلى أية حال ففي ليلة ٢٨ سبتمبر ١٩٦١، قامت بعض الوحدات العسكرية السورية بالتحرك نحو دمشق لتنفيذ انفصال سوريا عن مصر، وصدرت الأوامر بالقبض على الضباط المصريين الذين كانوا يعملون في وحدات الجيش السوري.

وكان أول عمل قام به جمال عبد الناصر صباح يوم الانفصال هو أنه توجه إلى مبنى الإذاعة بالقاهرة، وأذاع بيانا على الأمة العربية، وهو شاعر بالحزن والأسى، وقال إن ما قام به المتمردون في دمشق يؤثر على وحدة العرب القومية، كما يؤثر على كفاحهم الطويل في سبيل عروبتهم، كما قال إنه لن يعلن حل الجمهروية العربية المتحدة مهما جابه من متاعب.

ولكن مع نهاية يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦١، كانت الحركة الانفصالية قد استطاعت بسط سيطرتها على سوريا، وقامت بتشكيل حكومة سورية اعترفت بها بعض الدول. وبدأت الإذاعة السورية في التشهير بفترة الوحدة. ونتيجة لتطور الأمور وجد عبد الناصر نفسه في موقف يدعوه إلى الاقرار بالأمر الواقع، فاستدعى في ٥ أكتوبر ١٩٦١ الأعضاء السوريين في مجلس الوزراء الموحد، وأعلن لهم ضرورة الاعتراف بالأمر الواقع. (١٣١)

إن الوحدة المصرية السورية هي موضوع يحتاج إلى كثير من الدراسة والتحليل، لأنها أول وحدة عربية اندماجية بدون استخدام القوة، ولكن ولعدة عوامل مختلفة منها عدم الاتصال البري بين شطري دولة الوحدة، مماعرقل الاندماج الحقيقي نتيجة لزرع إسرائيل في قلب الأمة العربية، هذا بالإضافة إلى بعض التسرع في تطبيق القرارات الأقتصادية ، ويضاف إلى ما سبق تفشي الروح الحزبية داخل الجيش السوري، كل ذلك أدى إلى وضع نهاية لها.

وهكذا فقد كانت الوحدةالاندماجية بين مصر وسوريا تجربة فريدة في نوعها، ويدل قصر عمرها (٢٢ فبراير ١٩٥٨ إلى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١) من جهة، وعدم تكرار التجربة بعد ذلك [١٣٢] بين الدول العربية، على أهمية الإعداد الجيد، وتعديل القوانين والتشريعات على مراحل، والسير قدما في الوحدة الفيدرالية التي تحافظ على النزعة المحلية ، مع الحفاظ على المصالح الحيوية للدول المشتركة في الوحدة.

عاشرا : الأمـــــل

لقد واجهت تجارب الوحدة العربية تحديات كبيرة، ولكن يبقى الأمل قائما في تحقيق الوحدة. وعلى أية حال فبعد انفصال الوحدة المصرية السورية في سبتمبر ١٩٦١، قامت محاولة لإقامة اتحاد فيدرالي يضم مصر وسوريا والعراق سنة ١٩٦٣، وذلك بعد قيام الثورة العراقية بخمس سنوات، وعلى أساس تشابه نظام الحكم، وما يقدمه هذا الاتحاد من وزن عسكري في مجرى الصراع العربي الإسرائيلي، وعقدت ثلاث جولات من المحادثات. والذي يعنينا منها هو الجولة الأخيرة التي جرت من ٧ إلى ١٣ أبريل ١٩٦٣، واشترك فيها مندوبون عن الدول الثلاث والتي كانت تسعى إلى إنشاء اتحاد فيدرالي.

وتطرق الحوار إلى موضوع المبادىء والمثل التي يدين بها كل فريق، وأعلن حزب البعث الحاكم في سوريا والعراق أنه لا اختلاف في المبادىء والمثل بينه وبين الاتحاد الاشتراكي العربي الحاكم في مصر. والظاهر أن البعثيين السوريين والعراقيين استطاعوا أن يغلبوا وجهة نظرهم في مشروع الاتحاد الثلاثي بين مصر والعراق وسوريا والذي أعلن في ١٤ أبريل ١٩٦٣، فقد أضيفت فقرة تنص على عدم حل الأحزاب، وتقرر البدء بإنشاء نظام دستوري فيدرالي يأخذ بعض الملامح الفيدرالية في الولايات المتحدة، فتتكون السلطة التشريعية من مجلسين مجلس أعلى تمثل فيه الأقطار الثلاثة بالتساوي، وقد مال السوريون والعراقيون إلى توسيع اختصاصات هذا المجلس، لأن ذلك سيعطى لحزب البعث أغلبية فيه. أما المجلس الأدنى فتوزع فيه الدوائر حسب عدد السكان، ولكل قطر مجلس إقليمي له حق التشريع في الأمور المحلية. كما اقترح تكوين مجلس رئاسة لتقديم المشورة إلى رئيس الجمهورية، ويكون هذا المجلس هو رمز الاتحاد إبان الفترة الانتقالية. وقد كانت الفترة الانتقالية محل جدل عنيف في المباحثات، واستطاع البعثيون مد هذه الفترة إلى سنتين، وهدفهم من ذلك هو استغلالها لتدعيم مركزهم في الداخل، واتضح بعد ذلك أن سوريا والعراق ليستا جادتين في مسألة الاتحاد الفيدرالي وأن القصد منه كان التخلص من الخصوم السياسيين، وهكذا أخفقت العملية برمتها. (١٣٣)

ولكن ومع هذا الفشل الذي أصاب الاتحاد الثلاثي، بزغت بارقة أمل بالنسبة لحلم الوحدة العربية عن طرق تحقيق انجازات كبرى على شكل قيام دولة الإمارات العربية المتحدة، وتحقيق قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربية، والإعلان عن قيام الاتحاد المغاربى، ونحن لن نتكلم بالتفصيل عن هذه الانجازات الكبرى، لأن كل إنجاز من هذه الإنجازات يحتاج إلى دراسة مفصلة خاصة، ولكن يبقى أن نلقي بعض الأضواء على هذه الأنواع من التوحد العربي.

١- دولة الامارات العربية المتحدة:

كانت إمارات الخليج العربية تحت الحماية البريطانية قبل تحقيق الاستقلال، وبرغم أن المملكة المتحدة قد أعلنت منذ عام ١٨٩٢ مسؤوليتها عن الدفاع والعلاقات الخارجية، فإن هذه المشيخات كانت بالفعل مستقلة في إدارة أمورها الداخلية، كما كان لكل حاكم سلطات مطلقة في إمارته.

وفي عام ١٩٥٢ تشكلت هيئة محلية باسم المجلس المهادن، والذي تكون من حكام سبع مشيخات. وكان الغرض من هذا المجلس هو تشجيع تبني السياسات المشتركة في الأمور الإدارية، وخصوصا تلك التي تؤدى إلى اتحاد الإمارات.

وكان البترول - الذي يعد أساس التقدم المعاصر في المنطقة -قد اكتشف في عام ١٩٥٨ ، وذلك عندما اكتشفت الآبار تحت مياه الخليج العربي في أبو ظبى أكبر المشيخات. كما اكتشف البترول على ساحل أبوظبي سنة ١٩٦٠، وبدأ الاستغلال الاقتصادي للنفط عام ١٩٦٢، مما أدى إلى توفير دخول عالية.

وفي يوليو ١٩٧١، وافقت ست من الإمارات المهادنة (أبوظبي ودبي والشارقة وأم القوين وعجمان والفجيرة) على قيام الاتحاد.

كما وضع دستور فيدرالي يحقق الاستقلال للإمارات العربية المتحدة. وبالتالي أنهت المملكة المتحدة معاهدة علاقاتها الخاصة مع الإمارات، وأصبحت دولة الإمارات العربية المتحدة مستقلة في ٢ ديسمبر ١٩٧١.

وانضمت الإمارات الباقية وهي رأس الخيمة إلى دولة الامارات العربية المتحدة في فبراير ١٩٧٢. وعند الاستقلال أصبح صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبوظبي أول رئيس لدولة الإمارات العربية المتحدة.

ودولة الامارات العربية المتحدة هي إحدى الدول المؤسسة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية سنة ١٩٨١ (١٣٤)، وغني عن البيان أن دولة الإمارات العربية المتحدة هي نموذج للتكامل العربي بين الإمارات العربية المشكلة لدولة الاتحاد فكل إمارة احتفظت بنظامها الداخلي الخاص، ولكن السياسة الخارجية والدفاع والنقد والتجارة الخارجية والتعاون شكلت أساسا للاتحاد الفيدرالي.

وتقوم دولة الإمارات العربية المتحدة بتقديم المعاونات لغيرها من الدول العربية، وخاصة بالنسبة لمعاونة الشعب الفلسطيني في مواجهته لحرب إرهاب الدولة الإسرائيلية.

ولاننسى في هذا الإطار، دعم دولة الإمارات العربية المتحدة للاقتصاد المصري، ومساهمة الدولة في المشروعات الكبرى في مصر كمشروعات توشكي وشرق التفريعة، والمشروعات الإنشائية والثقافية، ومشروعات المدن الجديدة، ويكفي في هذا الإطار الإشارة إلى أنه في ٧ مايو ٢٠٠٢ قام الرئيس المصري حسني مبارك بإزاحة الستار عن اللوحة التذكارية لمحطة تنقية مياه الشيخ زايد بمحافظة الجيزة ، والتي تبلغ طاقتها ٤٥٠ ألف متر مكعب في اليوم بتكلفة ٧١٠ مليون جنيه مصري، وهي مصممة على أحدث تكنولوجيا متطورة، وتغطي المحطة مدينة الشيخ زايد والمناطق المحيطة بها والممتدة من نادي الرماية وحتى الكيلو ٢٨ من طريق القاهرة - الاسكندرية الصحراوي.

وتقام محطة الشيخ زايد على مساحة ٤٠٠ ألف متر مربع، وهي ممولة من صندوق أبوظبي للتنمية لإقامة المحطة وعدد من المشروعات الخدمية بمنطقة الشيخ زايد، كما تم تنفيذ ٧٦ كيلو مترا طوليا من خطوط المواسير لنقل المياه العكرة من المأخذ عند الرياح البحري إلى المحطة، ومن محطة التنقية إلى مناطق التغذية بالمياه

بأقطار سعتها ما بين ٤٠٠، ١٨٠٠ ملليمتر، هذا بخلاف ٩٠٠ متر طولي عبارة عن أنفاق توصيل.

كما تشتمل محطة مياه تنقية مياه الشيخ زايد على بئر توزيع رئيسي تشمل خطي تغذية بقطر ١٨٠٠ ملليمتر ، وثلاثة خلاطات سريعة، ومبنى المرشحات الذي يتكون من ٣٠ مرشحا بطاقة إجمالية ٤٥٠ الف متر مكعب يوميا، وتشتمل أيضا على خزانات للمياه المنقاه ، حيث تحتوي على خزانين سعة كل منهما ٧٥ ألف متر مكعب بسعة إجمالية ١٥٠ ألف متر مكعب.

وتشتمل محطة تنقية المياه بمدينة الشيخ زايد على مبنى لمحطة طلمبات المياه النقية، وتضم اثنتى عشر طلمبة تصرف الواحدة ٣٢٥٠ مترا مكعبا في الساعة.

كما تفقد الرئيس مبارك مستشفى الشيخ زايد في المدينة. [١٣٥]

وهذا المثال الذي سقناه يؤكد التعاون المثمر بين دولة الإمارات العربية المتحدة، والدول العربية الشقيقة.

٢- مجلس التعاون لدول الخليج العربية:

في ٢١ رجب ١٤٠١ (٢٥ مايو ١٩٨١) التقى أصحاب الجلالة والسمو قادة كل من الإمارات العربية المتحدة ودولة البحرين والمملكة العربية السعودية وسلطنة عمان ودولة قطر ودولة الكويت في دبي حيث توصلوا إلى صيغة للتعاون تضم هذه الدول لتحقيق التنسيق والتكامل في كل المجالات، ومن أجل تحقيق الوحدة طبقا للمادة الرابعة من ميثاق مجلس التعاون لدول الخليج العربية.

كما يؤكد الميثاق أيضا على العلاقات الخاصة، والوجدان المشترك والأنظمة المتشابهة طبقا للعقيدة الإسلامية الغراء، وأن التعاون بين هذه الدول يخدم الأهداف العليا للأمة العربية.

ولم يكن قرار إنشاء مجلس التعاون وليد اللحظة، ولكن المقومات الفعالة بين شعوب هذه المجموعة من الدول، تدعمها حقيقة جغرافية هي الامتداد من الساحل

حتى الصحراء، مما سهل الاتصال والتداخل بين السكان والذي شكل تجانسا سكانيا مترابطا.

وهكذا فإن مجلس التعاون لدول الخليج العربية هو من ناحية استمرار للعلاقات المتميزة القديمة، وهو إجابة عملية لتحديات الأمن والتكتل الاقتصادي في المنطقة، وهو استجابة لأماني المواطنين تجاه وحدة الدول الست، كمدخل لتحقيق الوحدة العربية الشاملة.

وطبقا لميثاق المجلس، فإن الأهداف الأساسية تؤكد أهمية التنسيق والتكامل بين الدول الأعضاء في كل الميادين، وتدعيم الروابط بين الشعوب، وتأكيد التعاون الاقتصادي والمالي والتجاري والسياحي. وكذلك التعاون في مجالات التشريع والإدارة والصناعة والتعدين والزراعة والمياه والثروة الحيوانية، وتأسيس المراكز البحثية، وتشجيع التعاون في القطاع الخاص.

والمجلس الأعلى أو قمة مجلس التعاون لدول الخليج العربية هي السلطة العليا للمجلس، وتتشكل القمة من رؤساء الدول الأعضاء، ورئاسة القمة تتغير سنويا بالتناوب بين الدول، وتعقد القمة كل عام على شكل دورة واحدة. ولكن يمكن وفي ظروف خاصة عقد قمة غير اعتيادية طبقا لطلب إحدى الدول الأعضاء مدعوما بطلب من دولة ثانية.

وفي عام ١٩٩٨ وأثناء القمة التاسعة عشرة والتي عقدت في أبوظبي، قرر المجلس الأعلى عقد اجتماع استشاري بين كل قمتين خلال العام.

وتعتبر اجتماعات قمة مجلس التعاون لدول الخليج العربية قانونية إذا حضر ثلثا حكام الدول الأعضاء، حيث لكل صوت واحد. كما أن القرارات في الأمور المعروضة بالإجماع من الأعضاء الحاضرين، بينما التصويت بالأغلبية يعتبر كافيا بالنسبة للموافقة على القرارات ذات الطبيعة الإجرائية.

وطبقا لميثاق مجلس التعاون تشكل لجنة استشارية من ٣٠ من مواطني دول المجلس (خمسة لكل دولة من الدول الست) ويتم اختيارهم طبقا لخبراتهم ومؤهلاتهم ، وهم مسؤولون عن دراسة الأمور التي سوف تعرض على مؤتمرات القمة.

كما يتكون المجلس الوزاري لمجلس التعاون من وزراء الخارجية للدول الأعضاء، وتكون رئاسة المجلس الوزراي لممثل الدولة التي رأست آخر جلسة عادية للقمة، ويجتمع المجلس الوزارى كل ثلاثة أشهر، وقد تعقد اجتماعات غير عادية طبقا لطلب دولة من الأعضاء متبوعا بطلب دولة أخرى.

ومن مهام المجلس الوزاري أن يقترح السياسات، ويضع التوصيات، وينسق التعاون في كل المجالات، كما أن القرارات الصادرة من اللجان الوزارية التابعة تقدم إلى المجلس الوزاري، والتي يرفع بعضها إلى القمة للموافقة. كما يختص المجلس الوزاري أيضا بتنظيم اجتماعات القمة، وإعداد جدول الأعمال وترتيبات التصويت.

أما أمين عام مجلس التعاون لدول الخليج العربية فيختص بإعداد الدراسات المختصة بالتعاون والتنسيق، ووضع خطط التكامل والبرامج للعمل المشترك، وتقديم التقارير الدورية، ومتابعة تنفيذ القرارات. وكذلك إعداد التقارير التي قد تطلبها القمة أو المجلس الوزاري. كما يعد الأمين العام جداول الأعمال ومسودات القرارات للمجلس الوزاري.

أما بالنسبة لتنظيم الأمانة العامة، فهناك الأمين العام الذي يعينه المجلس الأعلى (القمة) لمدة ثلاثة أعوام قابلة للتجديد لمرة واحدة. وهناك ثلاثة أمناء مساعدين للأمور السياسية والاقتصادية والعسكرية.

أما الشكل الإداري للأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية فيتكون من عدد من القطاعات كالشؤون الخارجية، والاقتصادية، والعسكرية، والإنسانية والبيئية، والتشريعية، ومكتب الأمين العام، وإدارة الشؤون المالية، ومكتب براءات الاختراع، ووحدة التقدم الإداري، ومركز الإعلام، هذا بجانب مفوضية مجلس التعاون في بروكسل، ومكتب الاتصالات في البحرين.

إن مجلس التعاون يعتبر تجربة وحدوية ناجحة، فهناك إنجازات كبرى قد تمت ، فقد ألغيت تأشيرات الدخول لمواطني دول المجلس، هذا بالإضافة إلى تحقيق الكثير من التنسيق والتعاون في مجال التعريفة الجمركية والتشريعات، هذا بالإضافة إلى التنسيق العسكري وإجراء المناورات العسكرية المشتركة. [١٣٦]

ونأمل في أن يكون هذا المثال الوحدوي الممتاز مقدمة لإنجاز الوحدة العربية الشاملة.

٣- إنشاء الاتحاد المغاربي :

كان لقيام الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ صدى بعيدا في المغرب العربي. وكان ميثاق الجامعة يشتمل على ملحق خاص بتحرير شعوب شمال أفريقيا، إلا أن ظروف الجامعة في ذلك الوقت لم تسمح لها بأن تلعب الدور الذي تطلع إليه المغاربة منها. ومع ذلك فقد كانت القاهرة ملجأ للزعماء الذين تعرضوا للنفي والاعتقال، وفيها تأسست لجنة المغرب العربي تحت رعاية الجامعة العربية.

وتأكيدا لانصهار الحركات الوطنية في دول المغرب العربي (الجزائر - تونس - المغرب) انعقد مؤتمر من الأحزاب الرئيسية الثلاثة: الاستقلال المغربي (المراكشي) والحزب الدستوري الجديد في تونس، وحزب الشعب الجزائري في المدة من ١٥ إلى ٢٢ فبراير سنة ١٩٤٧. وقرر المؤتمر تأسيس مكتب المغرب العربي لتنسيق العمل بين الحركات الاستقلالية فيما بينها وبالتعاون مع الجامعة العربية. وقد أعيد تشكيل المكتب عندما وصل الأمير عبد الكريم الخطابي إلى القاهرة باسم لجنة تحرير المغرب العربي، وأختير الأمير لرئاستها مدى الحياة. وتم توسيع دائرة هذه اللجنة، فأصبحت تضم ممثلين عن الحزب الدستوري التونسي بفرعيه وأحزاب الاستقلال والإصلاح والشورى من مراكش وحزب الشعب من الجزائر.

وفي ٩ ديسمبر ١٩٤٧، أصدرت لجنة تحرير المغرب العربي ميثاقا وطنيا كانت أهم بنوده أن المغرب العربي جزء لايتجزأ من الوطن العربي، وأن غاية لجنة تحرير المغرب العربي هي الاستقلال التام لأقطار المغرب (الجزائر - تونس - المغرب) وأنه لامفاوضة إلا بعد الاستقلال. وأن للأحزاب الممثلة في اللجنة أن تدخل في مفاوضات مع فرنسا أو إسبانيا بشرط إبلاغ لجنة تحرير المغرب العربي بكل ما يجري في تلك المفاوضات. كما قرر الميثاق أن حصول قطر على استقلاله التام لايسقط عن اللجنة السعى لتحرير الأقطار الأخرى.

على أن الجامعة العربية لم يكن لديها آنذاك الإمكانيات لتقديم المساعدات الفعالة لحركات التحرير في المغرب العربي، وكانت معوناتها المالية محدودة جدا، واكتفت بإصدار قرارات التأييد، كما حملت لواء الدفاع عن قضايا المغرب العربي في الأمم المتحدة، حتى استطاعت أن تدرج المسألة المغربية أمام الهيئة سنة ١٩٥٣ وأن تستصدر من الهيئة العامة بعض التأييد.

وعلى أية حال، فبعد استقلال تونس والمغرب (مراكش) ازدادت فكرة الوحدة المغربية رسوخا، وكان بورقيبة من أوائل المتحمسين لها، ففي عام ١٩٥٧ دعا إلى قيام اتحاد فعلي بين تونس والجزائر.

ولكن فكرة الوحدة المغربية لم تلبث أن اتخذت قاعدة جديدة نابعة من تطور الحركة الوطنية، وذلك حينما قررت المنظمات الرئيسية الثلاث: الحزب الدستوري الجديد في تونس وجبهة التحرير الجزائرية. وحزب الاستقلال المراكشي عقد مؤتمر للبحث في الوسائل العملية لتوحيد المغرب العربي الكبير. وانعقد المؤتمر فعلا في طنجة في الفترة ما بين ٢٧، ٣٠ أبريل ١٩٥٨. ويعد هذا المؤتمر خطوة هامة في تاريخ الفكرة. وقد تمسك المؤتمر في قراراته بأن الوحدة المغربية لابد وأن تكون في إطار العروبة. واتخذ هذا المؤتمر قرارا بتأييد كفاح الجزائر بالوسائل الإيجابية، كما بحث في احتمال قيام حكومة مؤقتة للجزائر. وقرر توحيد الجهود من أجل تصفية بقايا الاستعمار الفرنسي في تونس والمغرب. ومن المهم هنا أن نوضح توصية المؤتمر بخصوص الوحدة المغربية، فهو يتصورها على النحو التالي:

«إن مؤتمر توحيد المغرب العربي المنعقد في طنجة في المدة من ٢٧ إلى ٣٠ أبريل ١٩٥٨ يشعر أنه يعبر عن إرادة إجماع شعوب المغرب العربي في توحيد مصيرها في دائرة التضامن المتين لمصالحها».

«وهو مقتنع بأن الوقت قد حان لتجسيم هذه الإرادة في الوحدة عن طريق مؤسسات مشتركة تمكن هذه الشعوب من القيام بدورها بين الأمم. وقرر أن يعمل على تحقيق هذه الوحدة ويعتبر أن الشكل الفيدرالي أكثر ملاءمة للواقع في البلاد المشتركة في

هذا المؤتمر. ولهذا الغرض يقترح المؤتمر أن يشكل في المرحلة الانتقالية مجلس استشاري للمغرب العربي منبثق عن المجالس الوطنية المحلية في تونس والمغرب وعن المجلس الوطني للثورة الجزائرية، ومهمته دراسة القضايا ذات المصالح المشتركة، وتقديم التوصيات للسلطات التنفيذية المحلية».

«ويوصي المؤتمر بضرورة الاتصالات الدورية، وكلما اقتضت الظروف ذلك بين المسؤولين المحليين للأقطار الثلاثة من أجل التشاور حول قضايا المغرب العربي، ولدراسة تنفيذ التوصيات التي يصدرها المجلس الاستشاري للمغرب العربي».

«ويوصي المؤتمر حكومات أقطار المغرب العربي بألا تربط منفردة مصير شمال أفريقيا في ميدان العلاقات الخارجية والدفاع إلى أن تتم إقامة المؤسسات الفيدرالية».

كما قرر المؤتمر «تأسيس أمانة دائمة للسهر على نفيذ مقرراته، وتؤلف هذه الأمانة من ستة أعضاء بنسبة مندوبين عن كل حركة ممثلة في المؤتمر، وتنقسم إلى مكتبين أحدهما بالرباط والثاني في تونس، وتجتمع الأمانة دوريا في إحدى العاصمتين بالتناوب». [١٣٧]

واستمرت محاولات تحقيق الوحدة المغربية بعد استقلال الجزائر سنة ١٩٦٢، ولكن بعض المشكلات الناتجة عن الفترة الاستعمارية السابقة كمشكلات تداخل الحدود بين دول المغرب العربي عرقلت مسيرة الوحدة، إلى أن توصلت الأقطار المغربية مؤخرا إلى اقامة الاتحاد المغاربي، الذي يعد اللبنة الأساسية في تحقيق قيام الدولة المغربية الموحدة.

ففي السابع عشر من فبراير ١٩٨٩، وفي مدينة مراكش المغربية وفي القصر الملكى، وقف الرئيس بن علي والعقيد القذافي والملك الحسن الثاني والرئيس بن جديد والعقيد ولد الطايع متشابكي ليردوا على هتاف الجماهير التي احتشدت منذ الصباح الباكر أمام الشرفة الملكية. وأعلن القادة الخمسة وثيقة إنشاء اتحاد المغرب العربي، وذكرت الوثيقة الأسس التي تم عليها إقامة الاتحاد بأنها «وحدة الدين واللغة

والتاريخ ووحدة الأماني والتطلعات والمصير» وأنه «نظرا لما يحدث من تحولات وما يتم من ترابط وتكامل على الصعيد الدولي بصفة عامة وما تواجهه دولنا وشعوبنا من تحديات في الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية.. ونظراً لما نلمسه من الحاجة الملحة إلى تضافر جهود دولنا» فإنه من الأهمية بمكان لم الشمل وإقامة الاتحاد بين دول المغرب العربي. كما حددت أهداف الاتحاد بأنها «افضل السبل المؤدية إلى اقامة صرح المغرب العربي والسير على نهج مشاريع الوحدات الجهوية عبر العالم وما تتميز به من تدرج على خطوات رصينة ثابتة وما طبع تخطيطها من عقلانية.. وبأنهامرحلة أساسية لتحقيق الوحدة العربية» كما نصت الوثيقة على أن هذا الاتحاد يهدف إلى «تعزيز استقلال اقطار المغرب العربي وصيانة مكتسباتها». أما أجهزة الاتحاد الرئيسية فتتمثل في الآتي:

أ - مجلس رئاسي وتيكون من رؤساء دول الاتحاد ويتم التناوب في رئاسته مرة كل سنة، ومجلس الرئاسة هو الهيئة الوحيدة المخولة باتخاذ القرار، وتصدر قراراته بالاجماع.

ب- مجلس وزراء الخارجية، ولجان وزارية متخصصة تعمل بالتعاون مع لجنة لاستشراف امكانيات التكامل بين دول الاتحاد، وعرض دراستها على مجلس الرئاسة.

٣- مجلس الشورى يتألف من ٢٠ عضوا عن كل دولة في الاتحاد يتم اختيارهم من الهيئات النيابية للدول الأعضاء ، وأقر المجلس الرئاسي في دورته العادية السادسة لرفع عدد أعضاء المجلس إلى ثلاثين عضواً بحيث يمثل كل برلمان عشرة أعضاء .

٤- هيئة قضائية لفض المنازعات وتتكون من عشرة أعضاء عضوين من كل دولة.

كذلك اتفقت الأقطار الأعضاء على إعمال مبدأ الدفاع المشترك فيما بينها إزاء العدوان الخارجي، وتعهدت كل دولة بعدم السماح بأى نشاط أو تنظيم فوق ترابها ليمس أمن أو حرمة تراب أي منها أو نظامها السياسي.

ومما لاشك فيه أن أي دولة عندما توافق على الدخول في صيغة اتحادية معينة في منطقة جغرافية بعينها، تهدف بالأساس إلى تحقيق مصالح معينة وبلوغ اهداف تسعى إلى تحقيقها، وهذا ينطبق على دول المغرب العربي حينما قررت الدخول في «الاتحاد المغربى العربي».

وهكذا تشكل الإتحاد المغاربي من دول المغرب العربي - المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا - موريتانيا - ليشكل تجمعا عربيا مؤثرا في شمال أفريقيا، ونأمل أن يستمر التفاعل بين أقطار المغرب العربي في كافة النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لأن هذا الاتحاد ماهو إلا لبنة في إقامة صرح الوحدة العربية الشاملة.

لقد تعرضت مشروعات الوحدة العربية في التاريخ الحديث والمعاصر للكثير من المؤامرات والتحديات، ممثلة في العمليات الاستعمارية التي استهدفت الوطن العربي في التاريخ الحديث، وكذلك في الكيان الصهيوني التوسعي في التاريخ المعاصر، والذي زرعته القوى الامبريالية الكبرى زرعا في قلب الأمة العربية، وبالتالي ومع اعترافنا بصعوبة المهمة، فإن الأمل معقود في أن تتوصل الشعوب العربية في الوطن العربي الكبير إلى تحقيق وحدتها المرجوة، حتى يمكنها أن تملي رغباتها على منافسيها، وهناك مؤشرات إيجابية في هذا الصدد، فإن دورية القمة العربية، وتفعيل أعمال اللجان الثنائية العليا بين مختلف الدول العربية، هذا إلى تعدد القنوات الفضائية والأجهزة الاعلامية العربية الأخرى، والتي تنشر وتبث برامج من شأنها تدعيم أواصر العلاقات بين شعوب الأمة العربية . إن كل هذه الإيجابيات كفيلة بوضع الأسس القوية لاقامة دولة الوحدة. وحتى نقيم الكيان السياسي والاقتصادي الفعال في مواجهة التكتلات السياسية والاقتصادية الدولية العملاقة، وحتى ننفذ تعليمات المولى جل شأنه ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ .

صدق الله العظيم

الهوامش :

١- دكتور محمد مصطفى زيدان - القومية العربية بين التحدى والاستجابة ، دار مكتبة الاندلس - بنغازى ليبيا ص ٢٥-٢٩.

٢- الدكتور محمد بديع شريف - الدكتور زكى المحاسنى الدكتور أحمد عزت عبد الكريم - دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة - مراجعة محمد شفيق غربال - جامعة الدول العربية. الادارة الثقافية - الانجلو المصرية - القاهرة ص ٥.

٣- الدكتور محمد بديع شريف وآخرون - المصدر السابق ص ٦.

٤- دكتور محمد مصطفى زيدان - المصدر السابق ص ٣٠-٣٤.

٥- أبو خلدون ساطع الحصرى - أبحاث مختارة في القومية العربية - دار المعارف - القاهرة ١٩٦٤ ص ٤٤. انظر د. محمد مصطفى زيدان - المصدر السابق ص ٣٥.

٦- محمد مصطفى زيدان - المصدر السابق ص ٤٠-٤٣.

٧- دكتور صلاح العقاد - المشرق العربي المعاصر - مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٩ ص ٦٠٣.

٨- الدكتور بطرس غالى - الدكتور محمود خيرى عيسى - المدخل في علم السياسة ط٥ - مطابع الاهرام ١٩٧٦ ص ١٨٨.

٩- المصدر السابق ص ١٩٠.

١٠- المصدر السابق ص ١٩١ - ١٩٥.

١١- الدكتور بطرس غالى المصدر السابق ص ١٩٦ - ٢٠٠.

١٢ H. Dodwell - The founder of modern Egypt. A study of Mohamed Ali . London, Cambridge University Press 1951 P. 39.

١٣ Philby H. St. J.B. Arabia - London. Earnest Benn limited 1930. p. 92.

Sanger Richard - The Arabian Peninsula New York. Cornell .١٤
University Press 1954. p. 27.

H. Dodwell op. cit p. 41. .١٥

١٦- د. جمال الدين الشيال - الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامى الحديث ص ٥٠.

١٧- لمزيد من التفصيلات انظر د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم - الدولة السعودية الأولى ص ٣٠ - ٤٠.

Playfair R.L. A History of Arabia Felix or Yemen from the commencement of the christian era to the present time, including an account of the British Settlement of Aden. Bombay Education Society Press 1859. p. 127.

١٩- عبد الواسع بن يحيى الواسعى اليمانى - تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن - القاهرة - المطبعة السلفية ١٣٤٦هـ ص ٢٢٥.

٢٠- د. أحمد فخرى - اليمن ماضيها وحاضرها - معهد الدراسات العربية - جامعة الدول العربية ١٩٥٧ ص ١٥٩.

٢١- د. جاد طه - معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٨٤م ص ٥٤.

٢٢- ساطع الحصرى - يوم ميسلون - صفحة من تاريخ العرب الحديث - بيروت - مطبعة الكشاف ١٩٤٧ ص ٤٨.

Wyman Bury- Arabia Infelix or the Turks in Yemen - .٢٣
London - Macmillan 1915 p. 13.

٢٤- عبد الرحمن الرافعى - عصر محمد على ط ٣ مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥١ ص ١١٥.

٢٥- د. جاد طه - سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية - دار الفكر العربي - ١٩٦٩ ص ٥٠.

Philby H. St. J.B. op. cit p. 92. .٢٦

٢٧- عبد الرحمن الرافعى - عصر محمد على - المصدر السابق ص ١٢٥.

٢٨. Philby H. St J.B. op. cit. p. 93.

٢٩. Ibid p.p. 98-102.

٣٠- د. جاد طه - سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية - المصدر السابق ص ٥٤.

٣١. Philby H. St. J.B. op. cit p. 103- 105.

٣٢ د. جاد طه - سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية - المصدر السابق ص ٥٦.

٣٣. Philby H. St. J.B. op. cit p. 133- 134.

٣٤- لمزيد من التفصيلات - انظر د. جاد طه - سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية - المصدر السابق ص ٥٩-٦٠.

٣٥- عبد الرحمن الرافعى - عصر محمد على - المصدر السابق ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

٣٦. Playfair R.L. op. cit p.p. 144-45.

٣٧. Hoskins , Harford - British Routes to India - London 1928 p. 269.

٣٨ -د. جمال زكريا قاسم - الخليج العربي - القاهرة - جامعة عين شمس - ١٩٦٦ ص٦٧.

٣٩- وثائق عابدين - محافظ الحجاز ١٢٥٤هـ - محفظة رقم ٢٦٧ من خورشيد باشا إلى عبد الله آل خليفة ٧ مارس ١٨٣٦ مرفق عربى للوثيقة رقم ١٣٧ حمراء.

٤٠. India Office Library - Political and Secret Library. B.8 Confidential. Memorandum on The Turkish claim to sovereignty over the Eastern shores of the Red Sea and the whole of Arabia, and to the Egyptian Claim to the Whole of the Western shores of the same sea, including the African Coast from suez to Cape Guardafui. Printed for the use of the Foreign Office. Hertzlet 10 March 1874 p.p. 4-6.

٤١. H. Dodwell Op. cit. p. 125.

٤٢. India Office Library - Political and Secret Library B. 8 Confidential op. cit p. 6.

٤٣- صلاح البكرى اليافعى - في جنوب الجزيرة العربية - القاهرة - مطبعة مصطفى البابى الحلبى - ١٩٤٩ ص ١٨.

٤٤. India Office Library - Political andSecret Library B. 8 Confidential op. cit p.p. 6-7.

٤٥- أمين الريحانى - ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية - جـ ١ - بيروت - المطبعة العلمية ١٩٢٥ ص ٢٣٦.

٤٦- وثائق عابدين - محافظ الحجاز ١٢٥٥هـ محفظة رقم ٢٦٧ وثيقة رقم ٩٤ حمراء - مترجمة من التركية - سر عسكر الحجاز إلى الوالى ١٦ جمادى الثانى ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٧.

٤٧- د. حسين مؤنس - الشرق الإسلامى في العصر الحديث - القاهرة - مطبعة حجازى ١٩٣٨ ص ١٩٦.

٤٨- لمزيد من التفصيلات انظر د. جاد طه - سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية - المصدر السابق ص ٦٧ وما بعدها.

٤٩. H. Dodwell op. cit p. 150.

٥٠- وثائق عابدين - محافظ الحجاز - محظفة رقم ٢٦٦ وثيقة رقم ٢٧ حمـراء - ابراهيم يكن سر عسكر اليمن إلى حسين باشا كبير معاونى الجناب العالى ٢٥ ربيع أول ١٢٥٥ هـ.

٥١- عبد الرحمن الرافعى - عصر محمد على - المصدر السابق ص ١٦٧ .

٥٢- المصدر السابق ص ١٧٤ - ١٧٥.

٥٣- لمزيد من التفصيلات انظر: القائمقام عبد الرحمن زكى - التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير - الجمعية الملكية للدراسات التاريخية - دار المعارف بمصر ١٩٥٠ ص ١٠٣-١٠٨.

٥٤- عبد الرحمن الرافعى - عصر محمد على - المصدر السابق ص ١٧٣ - ١٧٩.

٥٥- المصدر السابق ص ١٨٨ - ١٨٩.

٥٦- د. جاد طه - معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر - المصدر السابق ص ٥٩.

٥٧- د. على شلبى - المصريون والجندية في القرن التاسع عشر - دار الكتاب الجامعى - القاهرة - ١٩٨٨ ص ١٨٩ - ١٩٠.

٥٨- عبد الرحمن الرافعى - عصر محمد على - المصدر السابق ص ٣٢٣-٣٢٦. انظر ايضا عبد الرحمن زكى - المصدر السابق ص ٣٧١-٤٩٣.

ولمزيد من التفصيلات أنظر د. عبد المنعم الجميعى - من انتصارات الجيش المصرى - معركة نصيبين - تزيب ١٨٣٩ - دراسة في وثائق عابدين - دراسات عين ٢ ١٩٩٤.

٥٩- عبد الرحمن الرافعى - عصر محمد على - المصدر السابق ص ٣٢٧- ٣٣٢.

٦٠- المصدر السابق ص ٣٣٢، ٣٣٨.

٦١- د. جاد طه - سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية - المصدر السابق ص ١٣١.

٦٢ - محمد بن عبد القادر الجزائرى - تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ط٢ جـ ١ دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر - بيروت - ١٩٤٨ ص ٣١٦.

٦٣- علال الفاسى - الحركات الاستقلالية في المغرب العربي - دار الطباعة المغربية- تطوان ١٩٤٨ ص ٦.

٦٤ - أحمد بن خالد الناصرى - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ٩ - دار الكتاب - الدار البيضاء ١٩٥٦ - ص ٣١، ٣٢.

٦٥- المصدر السابق جـ ٩ ص ٣١.

٦٦ - محمد بن عبد القادر الحزائرى - المصدر السابق ص ٣١٦.

٦٧- المصدر السابق ص ٣١٨.

٦٨- الناصرى - المصدر السابق جـ ٩ ص ٤٥ ومحمد بن عبد القادر الجزائرى ص ٣٨٤-٣٨٩.

٦٩- الناصرى - المصدر السابق جـ ٩ ص ٤٤.

٧٠ - عبد الرحمان بن زيدان - إتحاف أعلام الناس بجمال حاضره - مكناس جـ ٥ المطبعة الوطنية - الرباط ١٩٣٣ جـ ١ ص ٦٧.

٧١. Julien Charles Andre - Histoire de L Afrique Contemporaine - Paris 1964 p. 24

٧٢- د. صلاح العقاد - المغرب العربي - الانجلو - القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٢٣.

٧٣- المصدر السابق ص ٢٠٦.

٧٤ - الناصرى - المصدر السابق جـ ٩ ص ٥٣.

٧٥- الوثائق - مجموعة دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية بالرباط - المجلد الثانى ١٩٧٦ ص ٥، ٦.

٧٦ - ورد نص المعاهدة بالمجلد الأول من الوثائق بنصيها الفرنسى المنقول عن وثائق وزارة الخارجية الفرنسية والعربي نقلا عن ابن زيدان - الاتحاف جـ ٥ ص ١٦٢.

٧٧- الناصرى - المصدر السابق جـ ص ٥٣.

٧٨- الوثائق - المصدر السابق جـ ٢ ص ٨ الوثيقة رقم ١٥١.

٧٩- الوثائق - المصدر السابق جـ ٢ وثيقة رقم ١٥٣ ص ١٢ - رسالة من الوزير محمد بن إدريس إلى عامل العرائش في شأن قبائل مغربية الحق الفرنسيون أرضها بمستعمرتهم الجزائر ١٧ يونيو ١٨٤٥.

٨٠- الوثائق - المصدر السابق جـ ٢ الوثيقة رقم ١٥٧ ص ٢٨ رسالة من السلطان مولاى عبد الرحمان بن هشام إلى عامل العرائش وتسريح الاسارى المغاربة - ٢٨ يونيو ١٨٤٥.

٨١- الوثائق - المصدر السابق جـ ٢ الوثيقة رقم ٥٦ ص ٢٤ رسالة من الوزير

محمد بن إدريس إلى عامل العرائش بشأن اتفاقية الحدود وإرسال سفير مغربى إلى فرنسا.

٨٢- الوثائق - المصدر السابق جـ ٢ الوثيقة رقم ١٦٢ ص ٤٢ رسالة من السلطان مولاى عبد الرحمان بن هشام إلى عامل العرائش تتعلق بالاحسان إلى مهاجر جزائرى ١١ يوليو ١٨٤٥.

والوثيقة رقم ١٦٥ ص ٤٧ رسالة من السلطان مولاى عبد الرحمان بن هشام إلى عامل تطوان تتعلق باعانة مهاجر جزائرى ٢٦ يوليو ١٨٤٥.

والوثائق ارقام ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤ من ص ٦٢ - ٦٥ وهي رسائل من السلطان عبد الرحمان بن هشام تتعلق باعانة مهاجرين جزائرين.

٨٣- د. جلال يحيى - العالم العربي الحديث - جـ ١ ، دار المعارف - مصر ص ١٩٧-٢٠٧.

٨٤- المصدر السابق ص ٤٢٩.

٨٥- د. جلال يحيى - المصدر السابق ص ٤٣٠ - ٤٤١.

٨٦- د. جاد طه - دراسات في تاريخ آسيا الحديث - جامعة عين شمس ٢٠٠١ ص ١٧٢.

٨٧- الدكتور عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (١٨١٥ - ١٨٦٠) المركز العربي للبحث والنشر - القاهرة ١٩٨٢ ص ١٦٢.

٨٨- د. جلال يحيى - المصدر السابق ص ٤٥٣ - ٤٥٥.

٨٩- المصدر السابق ص ٤٥٨.

٩٠- د. جلال يحيى - المصدر السابق ص ٤٦٦.

٩١- لمزيد من التفصيلات - المصدر السابق ص ٤٨١- ص ٥٠٥.

٩٢- المصدر السابق ٥٠٩- ٥١٥.

٩٣- د. جلال يحيى - المصدر السابق ص ٥٣٥.

٩٤- ملف وثائق فلسطين - جـ ١ الهيئة العامة للاستعلامات - وزارة الارشاد القومي - مصر ص ١٢٥.

٩٥- الحكم دروزة عرض للقضية الفلسطينية - منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث - بيروت مايو ١٩٦٧ ص ٥، ٦.

٩٦- ملف وثائق فلسطين المصدر السابق جـ ١ - عريضة الجمعية الإسلامية المسيحية إلى مؤتمر السلم العام حول تمسك عرب فلسطين ببلادهم ورفضهم فكرة الوطن القومي اليهودى والهجرة الصهيونية (١٩١٩/٣/٣٠). وثيقة رقم ٨٦ ص ٢٥٣، ص ٢٥٤ وهي محفوظة في لندن Public Record Office.

٩٧- دكتور جاد طه الحركة الصهيونية والعالم العربي منشأة المعارف - الاسكندرية ١٩٧٤ ص ٥ .

٩٨- ملف وثائق فلسطين - المصدر السابق جـ ١ ص ٣٧ أنظر:

Albert Hawasen - Palestine - The Rebirth of Ancient people London 1916.

٩٩- ملف وثائق فلسطين - المصدر السابق جـ ١ ص ٤١ انظر:

James Bichino - The restoration of the Jews . The Crisis of all nations.

١٠٠- د. حامد سلطان - المشكلات القانونية المتفرعة من القضية الفلسطينية انظر:

British Documents on the origin of war (1898- 1914) London M.S.O. Volx part 11 No1

انظر ملف وثائق فلسطين جـ ١ المصدر السابق ص ٤٧.

١٠١- ملف وثائق فلسطين جـ ١ المصدر السابق ص ٤٩.

١٠٢. Edward ledwich Mitford - An appeal in behalf of the jewish Nation in connection with British policy in the levant.

انظر ملف وثائق فلسطين جـ ١ المصدر السابق ص ٥١.

١٠٣. Thomas Clark India and Palestine

انظر ملف وثائق فلسطين جـ ١ - المصدر السابق ص ٥٣.

١٠٤. Leo Penisker Auto - Emancipation

انظر ملف وثائق فلسطين جـ ١ المصدر السابق ص ٦١.

١٠٥. د. جاد طه - الحركة الصهيونية والعالم العربي - المصدر السابق ص٩،١٠.

١٠٦- مذكرات هرتزل ص ٦٥ انظر يوميات هرتزل إعداد أنيس صانع ص ٦٧ مركز الابحاث - منظمة التحرير الفلسطينية - بيروت.

١٠٧- مذكرات هرتزل ص ٦٩ المصدر السابق ص ٦٧.

١٠٨- ملف وثائق فلسطين جـ ١ - المصدر السابق ص ٧١.

١٠٩- مذكرات هرتزل ص ١٣٣ المصدر السابق ص ٦٩.

١١٠ - مذكرات هرتزل ص ٢٦٩ المصدر السابق ص ٧٠.

١١١ - دكتور جاد طه - الحركة الصهيونية والعالم العربي - المصدر السابق ص٣٩.

١١٢ - المصدر السابق ص ٢٧.

١١٣ - لمزيد من التفصيلات د. صلاح العقاد - المشرق العربي المعاصر، المصدر السابق ص ٦٠٣-٦١٢.

١١٤ - المصدر السابق ص ٦١٤.

١١٥ - د. على الدين هلال - جميل مطر - د.أحمد عبد الونيس شتا - د. أحمد الرشيدى - د. ناصيف حتى - جامعة الدول العربية - الخبرة التاريخية ومشروعات التطوير- جامعة القاهرة - مركز البحوث السياسية - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ١٩٩٣ ص ٣٢١.

١١٦- د. على الدين هلال وآخرون - المصدر السابق ص ٣٢٢ - ٣٣٢.

١١٧- انظر دكتور بطرس بطرس غالى - الجامعة العربية وتسوية المنازعات المحلية - معهد البحوث والدراسات العربية - جامعة الدول العربية ١٩٧٧.

١١٨- شئون الشرق الأوسط - مركز بحوث الشرق الأوسط - جامعة عين شمس ع ٢ أبريل ٢٠٠٢ - الحضارة العربية - العالم العربي ملف العدد ص ٥٨.

١١٩- د. على الدين هلال وآخرون - المصدر السابق ص ١١ - ١٣.

١٢٠ - المصدر السابق ص ١٤ - ص ٢١.

١٢١ - د. جاد طه - ثورة ٢٣ يوليو بين النظرية والتطبيق - مكتبة سعيد رأفت - ١٩٦٩ ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

١٢٢ - د. صلاح العقاد - المشرق العربي المعاصر - المصدر السابق ص ٢٥٥ - ٢٥٨.

١٢٣- د. صلاح العقاد - المشرق العربي المعاصر - المصدر السابق ص ١٠٢- ١٠٤.

١٢٤- باتريك سيل - دراسة للسياسة العربية بعد الحرب (١٩٤٥ - ١٩٥٨) ط١ ١٩٦٨ ترجمة سمير عبده ص ٣٣٠.

١٢٥. Kirk - Contemporary Arab Politics New York 1961

انظر د. صلاح العقاد - المشرق العربي المعاصر - المصدر السابق ص١١٢.

١٢٦- د. صلاح العقاد - المشرق العربي المعاصر - المصدر السابق ص ١١٤- ١١٦.

١٢٧- وزارة الخارجية المصرية - محفظة رقم ٥٠٨ ملف ١٣٩/١٤ سرى للغاية. من السفارة المصرية في بغداد إلى وزارة الخارجية المصرية بشأن موقف العراق والاردن من الوحدة المصرية السورية .

١٢٨- وزارة الخارجية المصرية محفظة رقم ٣٣٧ ملف ٤٦ سرى من السفارة المصرية في بغداد إلى الخارجية المصرية بشأن الاتحاد بين العراق والاردن.

١٢٩- لمزيد من التفصيلات - صلاح نصر - عبد الناصر وتجربة الوحدة ١٩٧٦.

١٣٠ - محمد عبد العزيز أحمد ووفيق عبد العزيز فهمى - تجربة الوحدة بين مصرَ وسوريا - الدار القومية - القاهرة ص ٩٨- ١٠٠٠.

١٣١ - لمزيد من التفصيلات - صلاح نصر - المصدر السابق .

١٣٢ - د. صلاح العقاد - المشرق العربي المعاصر - المصدر السابق ص ١١٥.

١٣٣- المصدر السابق ص ٦٢٠ - ص ٦٢١.

١٣٤. United Arab Emirates. h tt p : // www. arab. de / arabinfo/ uae his.h t m .

١٣٥-- جريدة الأهرام القاهرية ع ٤٢١٥٦ ٨ مايو ٢٠٠٢.

١٣٦. The Gulf Cooperation Council - http: / www. suite 101. com / article. c f m/ 3874/41047

١٣٧- د. صلاح العقاد - المغرب العربي - المصدر السابق ص ٤٨٠- ٤٨٥.